المبحث الأول

النسيج البدويّ في اللغة والألفاظ

ونحن حين ندرس النسيج البدويَّ الذي يحيكُ به الشاعر قصيدته ، لا نعني بذلك تخيُّره الألفاظ الغريبة الحوشيَّة[1] دون غيرها ، لأنَّ مصطلح البداوة لا يعني وصفاً خاصًّا بهذه الألفاظ فقط ، فنحن بالتأمُّل في كلام قدامى النقاد مثل الآمدي ؛ والأصمعي ، وغيرهم ، نجد شيوع هذا المصطلح في سياقاتِ الحديث عن ألفاظ القصيدةِ وسبكها ، وسياقات الاستحسان لهذه الألفاظ وذلك السَّبك ، وبخاصَّة إذا صدرت عن أعرابيّ يقول هذا الشعر سليقةً .

ولذا ؛ نجد من الأوصافِ التي تطلق على القصيدةِ المترسِّمةِ لنهج البداوة ، الديباج الخسراوني ، أو البناء الوحشيُّ الأعرابيّ ، فالأصمعيُّ عندما أنشده إسحاق الموصليّ[2] :

هــل إلى نظــرةٍ إليــكِ ســبيلُ   فــيروّي الصــدى ويشــفى الغليــلُ
إن مــا قــلّ منــك يكثــرُ عنــدي   وكــثيرٌ مــمَّــن تحــبُّ القليــلُ

قال له لمن تنشدني؟ فقال الموصلي : لبعض الأعراب ، قال الأصمعي : ((والله هذا هو الديباج الخسراونيّ ، قال : فإنهما لليلتهما ، فقال الأصمعيّ : لا جرم والله أثر الصنعة والتكلّف بيّن عليهما))[3] ثم علَّل الآمدي ردَّ الأصمعي بأنَّه ((احتذاه على مثال وأخذه من متقدِّم ، وإنّما يستظرفُ مثله من الأعرابيّ الذي لا يقول إلاَّ على طبعه وسليقته))[4] .

---

(١) حوشيُّ الكلام ، وحشيُّهُ وغريبهُ ، والغريبُ المشكل منه . انظر : اللِّسان ، مادة (وحش) .

(٢،٣،٤) الموازنة ، الآمدي ، ١/٢٤ .

وما يعنينا هنا ، ليس الإعظام للقديم أو الأعرابيّ في إعجاب الأصمعي بالبيتين ، قبل أن يعرف أنهما للموصلي ، وإنما نستدل بذلك على أن احتذاء الأسلوب الأعرابي ، والنسج على المنوال البدويّ ، قد يقوم به المحدث فينال الإعجاب ، لأنَّها طريقة في التركيب والصياغة ، قد لا تحتوي فيها الأبيات على أي لفظٍ حوشيّ ، وتظلّ مع ذلك بدويَّة ، كما أن التبدّي غالباً ما يُطلق على تعمُّد هذا الأسلوب واحتذائِهْ ، وهذا ما يلاحظ عند مراجعة الحوار الذي أورده الآمدي بين أصحاب البحتري ، وأصحاب أبي تمام ، وذلك بأن أصحاب البحتريّ يرون أن أبا تمّام كان يتشبَّه بأهل البدو فيتعمّد استخدام الغريب ليدلّ على علمه باللغة وبكلام العرب ، وكثيرٌ من الشعر العربي ، يحفل بمثل هذه الأساليب البدويَّة ، حتّى عند من عُرف من الشعراء بالتجديد ، وهو أمرٌ نجده عند بشار بن برد ، وغيره ، فقد حاول معظمهم أن يأخذوا من هذه الطريقة بنصيب ، لأنه جزءٌ من روح العربيَّة ، ومن سليقة البيان العربي ، وكثيراً ما يطالعنا في مصادر النقد القديمة ، وصف الشعرِ بالبداوة والأعرابيَّة ، وأن الشاعر حذا حذواً أعرابيًّا في قصيدته .

ممَّا يؤكِّد وجود سماتٍ وخصائص تميّزُ هذا اللون من البيان ، وهذه الخصائص ـ ليست فقط ـ راجعةً إلى الألفاظ وغرابتها ، وإنما هي أيضاً خصائص أسلوبيَّة ترجع إلى البناء والتركيب ، كما ترجع أيضاً إلى المعاني والصُّور ، وممَّا دلَّ على التبدّي في البناء أن بشَّاراً كان يمدح بقصائد بدويَّة الاستهلال والمبنى ، غريبة الألفاظ والأسلوب ، فقد تركَ العاطف في قوله[1]:

بكِّرا صاحِيَّ قبلَ الهجيرِ إنَّ ذاكَ النجاحَ في التبكيرِ

وعلَّل هذا التَّرك لخلف الأحمر ، وأبي عمرو بن العلاء ، حين أنشدهما فقالا : لو قلتَ مكان (إنَّ ذاك النجاح) (بكِّرا فالنجاحَ في التبكير) كان أحسن ، علَّل هذا التَّرك بقوله : ((بنيتها أعرابيَّة وحشيَّة فقلت : إنَّ ذاك النجاح كما يقول

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص٢٧٢ .

الأعراب البدويُّون ولو قلت «بكِّرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولَّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة))[1].

وهذا قاطعٌ في أنَّ الأعرابيَّة عند بشَّار خصائص أسلوبيَّة ، وأحوال في الأبنية والتراكيب ، فليس في الفرق الذي بين كلامه وما اقترحه خلف كلمة غريبة ، وإنَّما طريقةُ تأليف الكلام وتركيبه .

فقد تأتي البداوة في الألفاظ والأسلوب ، منسوجةً نسجاً لطيفاً ، لا غرابةَ فيه ، ولا وحشيَّ ، كما وجدنا في أبياتِ الأصمعي ، كما قد يعمد الشَّاعر إلى الغريب عمداً ، كإثباتٍ للقدرة والبراعة في الإتيان بما جاء به الأعراب ، كما فعل بشَّار .

وما ذكرناه من شيوع الأساليب البدويَّة في الشّعر المشرقيّ ، ينطبق على الشِّعر الأندلسيّ ، وقد كان الأندلسيُّون أكثر تعلقاً بالبداوة وأساليبها ، لأن البعدَ الجغرافيّ ، والبيئة الأجنبيَّة ، أدَّت إلى قوَّة ارتباطهم بها روحيًّا ، ودينيًّا ، وثقافيًّا ، ففي أرجوزة للأعمى التطيلي ، صنعها بدويَّة في إيقاعها ، وموضوعها ، وألفاظها ، ونسجها ـ وهي طريقةٌ في الشِّعر يقوم فيها الشعراء بتتبُّعِ أساليبَ غريبة ، وألفاظَ وحشيَّة ، رغبةً في إثباتِ القدرة الفنيَّة على التعاطي مع جميع الأساليب لإثبات البراعة ـ فقال[2] :

أقفرَ من أسماءَ بوباةٌ إضمْ
فجانبا خبتٍ ، فجنبا ذي سلمْ
فمنحنى الأجراعِ من ذاتِ العلمْ
تلكَ المغاني ذممٌ من الذِّمم[3]

---

(١) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص٢٧٣ .

(٢) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٨١ .

(٣) الذمم : جمع ذمام ، كل حرمة تلزمك إذا ضيَّعتها المذمَّة ، والذمَّة العهد ، والذمّة الأمان ، والذمّة بمعنى العهد ، والأمان والضمان والحرمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذمم).

فاستخدام الفاءات في العطف عند ذكر الأمكنة البدويَّة ، حذا فيها التطيلي حذو امرئ القيس في معلقته (قفا نبك) [1] :

قفا نبكِ من ذكـرى حبيـبٍ ومـنزلِ   بسقطِ اللّوى بـين الـدخول فحومـلِ
فتوضـح فـالمقراةَ لم يَعْـفُ رسمهـا   لمـا نسـجتها مـن جنـوبٍ وشمـألِ

وهي ((لفتةٌ نفسيَّةٌ بارعةٌ يريدُ بها الشَّاعر أن يـدلَّ على أنَّ هـذه المـواضـع ـ برغم تباعدها في الواقع ـ متقاربةٌ في نفسه ، لأنَّها تضمُّ بينها المسرح العاطفي الذي لا تزال ذكرياتُه تعيش فوقه حيَّةً بل دافقةً بالحياة ، فهي جميعاً يضمُّها قلبه ويتسع لها ، وكأنَّما قد تلاشت بينها المسافات وذابت الحواجز ، واختفت الحدود ، أو ـ إذا استعرنا عبارات النحاة ـ تكون الفاء هنا للتقريب الذهني ، فالمواضع متباعدة في الواقع ، ولكن ذهن الشاعر أو خياله يقرِّب بينها))[2].

فبوباة[3] : اسمٌ للفلاة ، وإضم[4] : موضع ، وخبت[5] : علم لصحراءَ بين مكَّة والمدينة ، وذي سلم[6] : وادٍ ينحدر على الذنائب على طريق البصرة إلى الكوفة ، وذات العلم[7] : جبل في شرقي الحاجر .

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٢٢ .
(٢) دراسات في الشعر الجاهلي ، دكتور يوسف خليف ، ص١٢٨ .
(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (بوب) .
(٤) إضم : بالضم ثم السكون ، موضع ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٢١٥/١.
(٥) خبْت : بفتح أوله وتسكين ثانيه ، هو في الأصل المطمئن من الأرض فيه رمل ، وهو علم لصحراء بين مكة والمدينة ، انظر : معجم البلدان ، ٣٤٣/٢.
(٦) ذي سلم : وادٍ ينحدر على الذنائب ، أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة ، أكثر الشعراء من ذكره ، قال الرضي :

وهل أراكِ علـى وادي الأراك وهـلْ   يعـود تسـليمنا يومـاً بـذي سـلم

انظر : معجم البلدان ، ٢٤٠/٣ .
(٧) ذات العَلَم : العلم بالتحريك الجبل ، والعلم جبل فردٌ شرقي الحاجر يقال له أبان فيه نخل ، وفيه واد ، وعيون ، ونخيل ، ومياه ، انظر : معجم البلدان ، ١٤٧/٤.

وقد بدأ التطيلي الأرجوزة بالإخبار عن الخلاء ، فقال (أَقفَرَ) أي خَلاَ ، وأسند إليه البوباة ، وهي الفلاة أيضاً ، وأراد إثبات معنى الخلوّ والإقفار ممن تعنيه ، فقال : (من أسماءَ) لأنه أراد إقفاراً ممَّن يهواها ، أي خلوّاً منها .

ولذلك جعل المكان صحراءَ واسعةً قفراً خاليةً بالألفاظ الدالة على أماكن متباعدة ، لأن خلو المكان من أسماء ، خلوٌّ له من الناسِ جميعاً ، وذكر ذلك من خلال الأمكنة البدويَّة المترامية الأطراف ، التي جمع بينها وقرّب ذهنياً ، الفاءات العاطفة .

وجاء بتحديدٍ للأمكنة البدويَّة ، من خلال خصائص أسلوبيَّة بدويَّةٍ أيضاً ، وذلك بذكره الجوانب ، والمنحنى ، (فجانبا خبت) و (ومنحنى الأجراع) ، فاحتوى باللفظ المكانَ من جميع أطرافه ، ومنحنياته ، ثم قال (ذمم) وأراد بها أنَّ هذه الأماكن التي كانت تقطنها أسماء لها ذمَّة وحرمة ، وأمان ، وضمان ، وهو ما يعنيه لفظ (ذمَّة) وما يدل عليه ، ويوحي به من أخلاق البداوة ، في الحفاظ والرعاية ، والعناية ، لمن تشملهم الذمَّة أي العهد ، وقد جعلها هنا لأماكن كانت تقطنها أسماء ، وناسب في اللفظ بين الحفاظ للعهد ، والاحتفاظ بصورة الأماكن في الذاكرة ، وذلك بقوله بعد اسم الإشارة (تلك المغاني) وغنيَ بالمكان أقامَ به[1] ، فجعل عهدها مرعيًّا ، وذمَّتها محفوظة ، كما كانت عليه يوم إقامتها في هذه الأماكن لم يغيِّر ذلك شيءٌ من الإقفار الذي أخبر عنه آنفاً .

ثمَّ وصف أسماءَ في أبياتٍ منها قوله[2] :

وكـــلُّ نضـــوِ الخصـــرِ[3] حلـــوِ المبتسَـــمْ

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (غنيَ) .

(٢) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٨٢ .

(٣) نضو الخصر : مهزولةِ الخصر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .

غصنٌ وما عليكَ لو قلتَ صَنَمْ[1]
ما شئتَ من وثَارةٍ[2] ومن هضَمْ
على رُكامٍ[3] كلَّما انهالَ[4] ارتكمْ[5]
برَّحَ[6] بالمرطِ[7] وبي هماً كهمْ

فقال في صورتها : إنَّها(نضو) ، وهو لفظٌ بدويٌّ ، يوصَفُ به ـ أيضاً ـ البعير المهزول ، وقال هنا (نضو الخصر) فأسندها إلى الخصر ، وأراد بذلك ضموره ودقَّتهُ ـ دون بقيَّةِ جسدها ـ وذكر أنَّها غصنٌ على التشبيه القديم للمرأة بذلك ، ثمَّ جاء بأسلوبِ النفي في قوله :

(وما عليك لو قلتَ صنمْ)

أي ليس عليك في ذلك شيء ، فهي تشبه الغصن ، وتشبه الصنم ، ولفظ الصَّنم في تشبيهات المرأة ، جاء في قول عنترة ، يصف امرأة أبيه حين حمته من ضربه له بقوله[8] :

تجلَّلتني إذْ أهوى العَصَا قِبَلي كأنَّها صنمٌ يُعتادُ مكعوفُ

قال الخطيب التبريزي ((وشبَّهها بالصنم لأنه يصوِّر في أحسن صورة تمكِّن

---

(١) الصنم : الوثن ، وهي الصورة التي تعبد ، لم يكن حيّ من أحياء العرب إلا ولها صنم يعبدونها يسمّونها أنثى بني فلان ، انظر : اللِّسان ، مادة (صنم) .

(٢) وثَارة : كثيرةِ الشحم ، انظر : اللِّسان ، مادة (وثر) .

(٣) الرُّكام : المتراكم بعضه على بعض ، انظر : اللِّسان ، مادة (ركم) .

(٤) انهال : رمل منهال لا يثبت ، انظر : اللِّسان ، مادة (هيل) .

(٥) ارتكم : اجتمع ، انظر : اللِّسان ، مادة (ركم) .

(٦) برَّح : آذى بإلحاحٍ المشقَّة ، وبرَّح على المبالغة ، والبرح الشرّ والعذاب الشديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (برح) .

(٧) المرط : الثوب الغير مخيط ، انظر : اللِّسان ، مادة (مرط) .

(٨) ديوان عنترة ، ص٩٩ .

المصوِّر))[1] ، ولفظ الصَّنم قريبٌ من لفظ الدُّمية ، في تشبيه المرأة بها ، لأنهم أرادوا أحسنَ ما تكون عليه صورتها .

وقال الأعمى التطيلي (غصنٌ) وهو خبر لمبتدأ محذوف ، أي (هي غصنٌ) ، وهو أسلوبٌ خبريٌّ أراد به تقرير الصِّفة وتأكيدها لها ، ثم أردف ذلك بالأسلوب الإنشائي في النفي قبل قوله (لا يمتنع أن تقول في جمالها إنَّها صنم) ، ثمَّ قال (ما شئت) أي قل في وصف جمالها ما شئت من لفظ ، فهو جمع في ذلك الوصف : ضمور الخصر ، وحلو الابتسام ، والتشبيه بالغصن والصنم ، وقوله (ما شئت) أي اجمع لذلك في وصف حسنها ما أردتَ ، وفي ذلك مبالغة ، أضاف إليها صيغة مبالغة في قوله (وثَّارة) أي كثيرة الشحم ، وجاء بهذا الوصف مبالغاً فيه لأنه أراد زيادة سمنها ، وامتلاء جسدها ، وهو ذوق بدويّ ، في النظر إلى صفاتِ الحسن في المرأة ، وضمَّ إلى هذا اللفظ السخيّ بالامتلاء ، لفظاً آخر مطابقاً له في قوله (هضِم) ويعني بـه خمص بطنها ، ولطافة كشحها ، وهو ما ذكره سابقاً في قوله (نضو الخصر) ، وهو لمَّا جاء بصورتها الجميلةِ الثابتة التي حوتها لفظة (الصنم) ، عاد فجاء بألفاظٍ تشي بالحركة الحسيَّة في قوله (على رُكامٍ كلَّما انهال ارتكم) وأراد بهذه الألفاظ وصف امتلاءِ أرادفها ، ، وهو ما يكثر فيه بدويًّا ذكرُ الرُّكام المجتمع الضخم من الرمل ، والحركة في لفظ الانهيال لهذا الرمل ، وأراد بذلك عظم امتلاءٍ وضخامةٍ من السَّمن (في الركام) ، وحركةٌ وعدم استقرار في (الانهيال) ، ولذلك قال (كلَّما) وهو ظرف زمان ، متضمِّن معنى الشرط غير الجازم ، أي عند كلِّ انهيالٍ يرتكم ويجتمع بعضه فوق بعض ، فدلَّ بذلك على حدوث شيء متكرِّر لتكرر الفعل المسبب له ، أي أنَّه ينهال ثم يتراكم على التوالي ، وأراد بذلك حركة القيام والقعود عند هذه المرأة ، وهي حركة كثر وصفها في صورة المرأة في الشعر القديم .

---

(١) من شرح التبريزي على ديوان عنترة ، ص١٠٠ .

ثمَّ ذكر بعد هذا الوصف لجمال جسديٍّ حسّي ، ما فعله به من تبريحٍ ومشقَّة ، فقال (برَّح) وهو لفظٌ فيه مبالغة ، دلَّ به على زيادة العذاب الشديد ، وجمع الشاعرُ في المفعوليَّة بين نفسه والمرط ، وهو رداؤها ، لأنَّه أراد أن توالي حركة القيام والقعود في الألفاظ التي دلَّ عليها سابقاً بالظرف ، والأفعال (انهال) و (ارتكم) ، عذَّبت ثوبها ، وعذَّبته هو في نظره إليها ، ولذلك قال (برَّح بالمرط وبي) فقدَّم المرط عليه لموالاتِهِ جسدها ، وقربه منها ، ثم جمع بينه وإيَّاه في لفظي (همَّا كهم) أي أن همَّ هذا المرط كهمّه هو وعذابه بها .

ثم جاء بعد هذا الوصف لأسماءَ بصورة الطلل ، فقال[1] :

يـــا طَلَـــل الحـــيّ أراه قـــد طَسَـــمْ
لم يقـــدم العهـــدُ فمـــا بـــال القـــدمْ
أخـــرسٌ بـــدمنتيكِ أم صـــمْ
أم شـــيمةٌ أعـــدتْ فقـــد تُعـــدي الشِّـــيمْ

فبدأ الصياغة البدويَّة ، بالنداء للطَّلل ، وهي خاصيَّةٌ أسلوبيَّة جاهليَّة درج عليها القدماء ، أرادوا بها خطاب من فيه ، ولذلك كان يكثر بعد هذا الأسلوب الالتفات ، وهو هنا انصراف عن المخاطبة إلى الإخبار ، أو بعبارة أُخرى انصراف عن الخطاب إلى الغيبة ، فخاطب الطلل ، ثم انصرف عنه محدِّثاً بضميرِ الغائب ، وقال (أراه قد طسم) وهو من الأساليب البدويَّة التي درج عليها الشُّعراءُ قديماً ، من مثل قول النابغة[2] :

يـــا دار ميَّـــة بالعليـــاءِ فالسَّـــندِ أقوتْ وطـــالَ عليهـــا ســـالفُ الأبـــدِ

فانتقل من أسلوب المخاطبةِ إلى الغياب ، وهو أسلوبٌ يراد به ـ في هذا السياق ـ الرجوع إلى النفس ، والعودة إلى الواقع ، الذي وجده الشَّاعر ، وهو أن هذا الطلل لا يجيب فقد (طسم) أي درس[3] ، ثم والى الشاعر الأساليب

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٨٢ .

(٢) ديوان النابغة ، ص٧٦ .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (طسم) .

الإنشائية ، المناسبة للحالة النفسيَّة التي درج على تصويرها الشعراءُ البدو في وقوفهم على الطلل ، والتساؤل عن أسبابِ عفائِهِ ، واندثاره ، وذلك بعد أن أخبر عنه وقال : (لم يقدم العهدُ فما بال القدم) ، فنفى أن يكون قد تقادم الزمان الذي قد يؤدّي لمثل هذا العفاء ، ولذلك تساءل مستنكراً عن السبب في ذلك ، ثم أردف ذلك بالتساؤل عن سبب الخرس ، الذي جاء بجوابِهِ على التخيير بين الخرس ، والصمم ، والشيم .

والخرس عدم الكلام[١] ، والصمم ثقل السمع[٢]، والشيم الخلق والطبيعة[٣]، فجعل الدمنة وهي آثار الناس وما سوَّدوا من آثار البعر في المكان ، إمَّا خرساء لا تتكلَّم أو صمَّاء لا تسمع ، أو أن شيمتها وطبيعتها وخلقها ، اقتضت ذلك وهو عدم (الرَّد) ، والشاعر في خطاب الطلل وسؤاله ، يشخّصه ويحدّثه ، كما كان يفعل الجاهليُّون في هذا الغرض .

وهو في مقطع آخر ، يصف الصحراء ، فيقول[٤]:

يـــا ويـــبَ[٥] هـــذا القلـــبَ مـــن طيـــفٍ ألـــمّ[٦]
كـــــادَ يـــــوافي[٧] مضـــــجعي ولم أنـــــمْ
ودونـــــيَ الأهـــــوال : قـــــورٌ[٨] وأكـــــمٌ[٩]

---

(١) انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢٢٣/١ ، مادة (خرس) .
(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (صمم) .
(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (شيم) .
(٤) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٨٣ .
(٥) يا ويب : ويب كلمة مثل ويل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ويب) .
(٦) ألمَّ : زاره غبّاً ، أي في أحايين ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمم) .
(٧) يوافي : الموافاة أن توافي إنساناً في الميعاد ، انظر : اللِّسان ، مادة (وفي) .
(٨) القور : الجبل الصغير المنقطع عن الجبال ، انظر : اللِّسان ، مادة (قور) .
(٩) أكم : جمع أكمة وهي دون الجبال ، وهو أشدُّ ارتفاعاً ممَّا حوله ، انظر : اللِّسان ، مادة (أكم) .

لا يهتـــــدي الـــــدليلُ فيهــــا بِعَلَـــمْ

مهامـــــةٌ[1] فـــيحٌ[2] ولزبـــاتٌ[3] قُحَـــمْ[4]

تزيـــدُ فيهـــا الشـــمسُ مـمَّـــا تضـــطَّرِمْ

وينبـــتُ الكـــلالُ[5] فيهـــا والسَّـــأمْ[6]

في حيـــثُ لا تؤخـــذُ بالشـــدِّ زيـــمْ[7]

ويظمـــأُ الغـــيمُ إلى مـــا في الأدمْ[8]

وربَّمـــا غالـــتْ[9] إلى الـــبَهمِ[10] الـــبُهمْ[11]

واللَّيـــل كـــالبحرِ وإن لم يلـــتطِمْ

جـــونٌ[12] ظـــلامٍ هـــل سَـــمِعْتَ بـــالرَّجَمْ[13]

---

(١) المهمه : المفازة البعيدة ، والخرق الأملس الواسع ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهه).

(٢) فيحٌ : واسعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيح) .

(٣) لزبات : شدَّات ، جمع لزبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (لزب) .

(٤) قُحَمْ : القحم الأمور العظام التي لا يركبها كلُّ أحد . انظر : اللِّسان ، مادة (قحم).

(٥) الكلال : العيا ، والتعب ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلل) .

(٦) السأم : الملل والضجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (سأم) .

(٧) الزيم : القطعة من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (زيم) .

(٨) الأدم : أدمة الأرض باطنها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أدم) .

(٩) غالت : أهلكت ، وأخذت من حيث لم يدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (غول) .

(١٠) البَهْم : صغار المعز ، والغنم والضأن ، والبقر ، والوحش ، وغيرها ، الذكر والأنثى سواء ، انظر : اللِّسان ، مادة (بهم) .

(١١) البُهَمْ : جمع البهيم ، وهو المجهول الذي لا يعرف واشتباه الأمور ، والتباسها ، والسواد والظلام ، انظر : اللِّسان ، مادة (بهم) .

(١٢) الجون : الأسود اليحمومي ، انظر : اللِّسان ، مادة (جون) .

(١٣) الرَّجم : القول بالظنّ والحدس ، والقذف بالغيب ، والظنّ ، والرَّجم : الحجارة المجتمعة المرتفعة ، والرجمة أيضاً الحجارة التي تنصب على القبور ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجم) .

بدأ وصف الفلاة بلفظ (يا ويبَ) وكلمة (ويب) مثل (ويل) ، وذكر (القلبَ) بعد اسم الإشارة فقال (هذا القلب) وهو بدلٌ من (هذا) ، وأراد بذلك إثبات صفة الويل له دون غيره ، وتعظيم أمرِ ألمه ، من رؤيته طيفاً ألمَّ به ، أي زاره غِبًّا أو كادَ لأنه قال (كاد يوافي مضجعي) وكاد أي : هَمَّ وقاربَ ولم يفعل ، والموافاة أي توافي إنساناً في الميعاد ، وهو مناسبٌ لزيارة الطيف أحايين ، وكأنَّه كان ينتظر زيارة طيفٍ معوَّدٌ منه عليها ، في أوقاتٍ معينة ، إلاَّ أنَّه حُرِمَهَا في ذلك الوقت لأنَّه (لم ينم) ، فذكر الزيارة في لفظ (ألمَّ) ، وذكر انتظاره لها في قوله (يوافي) ، ولكنَّه جاء بما دلَّ على امتناع ذلك في قوله (كاد) و (لم أنم)، وزيارة الطيف لماماً ذكرها الشعراء كثيراً منذ القدم ، وأسهبوا في بيان ما يقطعه هذا الطيف من مهالك في سبيل الوصول إلى الشاعر ، وهي زيارة اتخذ منها التطيلي مدخلاً لوصف فلاةٍ ذكر أنها تحول بينه وإيَّاه ، فهي (قورٌ وأكم) أي جبال صغيرةٌ منقطعة وحجارة ، وأراد الشاعر أن يدل باللفظ على الوعورة والصعوبة ، ضمّ إلى ذلك وصف فلاة طامسة لا يهتدى فيها بعلم ،وهو مناسبٌ لما ذكره في أوَّل القصيدة ، في لفظي : (أقفر) و (بوباة) ، فهي فيحٌ واسعة و(لزبات قحم) ، ولزباتٌ : صفة للشدّة والأزمة[1] ، وقحم : صفة للعظام من الأمور التي لا يركبها كلُّ أحد[2] ، وهو ما ناسب ذكره الوعورة ، والحزونة ، والسعة ، وانطماس المعالم في الفلاة ، وأضاف ما توصف به الفلاة عادة من اضطرام الهجير ، وقال (تضطرم) وهو ما يعني اشتعال النار وتلهبها أسنده للشمس ، وأراد به شدَّة حرِّها ، وأضاف للألفاظ السابقة في وصفه الفلاة ، استعارته النبات للكلال والسأم ، وأراد بهما الإعياء والتعب ، والملل ، والضجر ،أسند إليهم فعل الإنبات لأنه أراد حالة مضطردة ، تعمُّ هذه الفلاة الواسعة ، التي يعتري السائر فيها الكلل ، والسأم ، وكأنَّه نباتٌ يملأ أرضها ، وعطف (ينبتُ) على (لا يهتدي) و (تزيد) ، لأنَّه أراد الربط بين هذه الأفعال التي تصف الفلاة ، وقال (ينبتُ الكلال فيها والسأم) فقدَّم فيها (المتعلق)

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (لزب) .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (قحم) .

على المعطوف على الكلال وهو السأم ، لأنه أراد أن يخصَّ به مكان الفلاة فقال (فيها) و (في) تعني الوعاء والظرفيَّة ، وهو ما أراده بقوله بعد ذلك (في حيث) فكرر حرف الجر (في) وزاد بقوله (حيث) وهي ظرف للمكان ، أي أنَّه في هذا الموضع وهو الصحراء المضلَّة (لا تؤخذ بالشدِّ زيَمْ) ، وهو من قول الراجز :

هـذا أوان الـحـرب فاشـتـدي زيـم

وهو ما تمثَّل به الحجاج في خطبته الشهيرة بالكوفة ، والشِّعر للحطم القيسي[1] ، والزيم : القطعة من الإبل[2] ، وأراد التطيلي بهذا أن يوظف القول المشهور ، في الدلالة على اتِّساع الفلاة ، وعدم القدرة على قطعها ، حتَّى أنه لا يصح القول للناقة اشتدِّي ، أي حثِّي السيرَ وأسرعي فيه .

وهو لمَّا ذكر الحرَّ والهجير في قوله (تضطرم) ، أخبر عن هذا الحرّ المهلك بقوله أن الغيم الذي يسقي الموات ، كان ظامئاً إلى ما في أدم الأرض أي باطنها ، وهذا القول الذي اختلطت فيه الصفات والمهمَّات ناسبه ما ذكره تالياً من اختلاطٍ والتباسٍ في هذه الصحراءِ المهلكة ، المضلَّة ، المجهلة ، التي تشتبه فيها الأمور ، حتَّى غالت وأهلكت هذه المجاهلُ البُهْمَ ، وهي صغار الغنمِ ، والضأن ، وغيره ، زاد في وصفه الاشتباه ، والالتباس في الصحراء ، ذكره إظلامُ اللَّيل فيها ، حتَّى كان لشدَّة ظلامه كالبحر دون التطام ، وهو ما نظر فيه إلى تشبيهِ امرئ القيس الشهير لليل بالبحر ، غير أنَّه لم يقرنه بالهمِّ كما فعل امرؤ القيس[3] ، لاختلافٍ في عمق تناول امرئ القيس للصُّورة والمعنى ، كما أنَّه استثنى في هذا الوصف من صورة امرئ القيس عدم التلاطم

---

(١) الكامل ، المبرد ، ٢٨٦/١ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (زيم) .

(٣) في قوله :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

ديوان امرئ القيس ، ص٤٨ .

والتماوج ، لأنَّه أراد ليلاً ساكناً شديدَ الظلمة ذكر أنه (جون) ، أي شديد الاسوداد ، وشبَّهه بالرَّجم وهي الحجارة المرتفعة التي تنصب على القبور ، وهو مناسبٌ لذكره هلاك البُهْم ، وظمأ الغيمِ ، والأهوال ، وقد يكون أراد بالرَّجم القول بالظنّ والحدس ، والقذف بالغيب ، ويعني التخرُّص في المسير في هذه الفلاة ، فيكون بذلك ناسب قوله (لا يهتدي) و (غالت) و (الجون).

ثم قال في الفلاة التي أطبقَ فيها اللَّيل[1] :

(قد ادلهمَّتْ في دجاه وادلهم)

فأسندَ ادلهمَّتْ إلى الفلاة التي دلَّ عليها بتاءِ التأنيث ، وفلاةٌ مدلهمَّةٌ أي لا أعلام فيها[2] ، كما علَّق بالفعل الجار والمجرور (في دجاه) ودُجَى اللَّيل سوادُه مع غيم ، وأن لا يُرى فيه نجمٌ ولا قمر ، وهو ما ألْبَس فيه كلُّ شيء ، وأراد بذلك أنَّ الأرضَ أطبقَتْ مع السَّماء في هذه الظلمة ، وكانت السَّماءُ طامسةً كالأرض ، دون علامات ، وعطف على قوله : ادلهمَّتْ (ادلهمَّ) الفعل المسند إلى الليل ، وهو الضميرُ المستتر فيه ، ويعني به أيضاً كثافة الظَّلام وشدَّة سواده[3] ، فجعل السَّماء بهذه الألفاظ مختلطةً بالأرضِ ، وهو مناسبٌ للاختلاط بين (الغيمِ والأرض) و (الإبهام والبُهْم) ، و(الجون والرَّجم) .

والقصيدةُ طويلةٌ ، وهي مثالٌ للتبدِّي في الصِّيغِ ، والنسج ، والأساليب ، لأن الشاعر قصد إلى هذه الألفاظ ، وطريقةِ التركيب قصداً ، لعلَّه أراد بها إظهار معرفته الأعرابيَّةِ بدقائقِ الألفاظ ، ودلالاتها ، فجاء من ألفاظِ البادية في الصحراء : بالقفر ، والبوباة ، والأهوال ، والقورِ ، والأكم ، والعلم ، والمهامه ، والفيح ، واضطرام الشمس ، وظمأ الغيم ، والغول ، والجون ، والادلهام ، إضافةً لأسماء الأماكن البدويَّة : إضمْ ، خبت ، ذي سلم ، ذات العلم ، ومن ألفاظها في الإبل : الشدُّ والزيم ، ومن ألفاظها في الطلل : الانطماس (طسم) ، والقدم ، والخرس ،

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٨٣ .

(٢،٣) انظر : اللِّسان ، مادة (دلهم) .

والصمم ، والدمن ، ومن الألفاظ البدويَّة في المرأة : نضاء الخصر ، والهضم ، والغصن ، والوثارة ، والرُّكام ، والانهيال ، والصنم .

وأضاف إلى ذلك استخدام الألفاظ البدويَّة الموحية ، في قوله : فجانبا ، ومنحنى ، وشيمة الطلل ، واللزبات ، والقحم ، وأضاف لذلك النسج البدويَّ في الصياغة ، حتَّى أن القارئ لها دون أن يعرف الشاعر قد يلتبس عليه الأمر ، فينسبها إلى أحد الشعراء الأعراب ، وهي طريقةٌ في النسج اللغوي ، يعمد فيها الشاعر عمداً للتبدّي ، فالأعمى التطيلي معروفٌ بموشحَّاتِهِ الأندلسيَّة ، الرقيقةِ الصياغة والألفاظ ، وهو ما يدلُّ بالتالي على الرَّغبةِ عنده في إثباتِ البراعةِ عن طريقِ هذا الأسلوب البدويّ .

وفي مثل هذا النسيج البدويّ قوله من أرجوزةٍ أخرى في المدح جاء فيها[1] :

صُنْ يا وليَّ العهدِ إن لم تبذُلِ
من للمنى بقربكَ المؤمَّلِ
ودونه مَرْتٌ[2] كظهرِ الأيِّلِ[3]
يأتي على المخفِّ[4] قبلَ المُثقِلِ[5]
ويذهبُ الغولُ[6] عن التغوُّلِ[7]

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٥٩ .

(٢) المرت : المفازة لا نبات فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (مرت) .

(٣) الأيِّل : ذكر الأوعال ، انظر : اللِّسان ، مادة (أيل) ، وسمي بذلك لمآله إلى الجبل يتحصّن فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (أول) .

(٤) المخفّ : الخفيف الجسم والوزن ، انظر : اللِّسان ، مادة (خفف) .

(٥) المثقل : الثقل نقيض الخفة ، وهو الذي أثقله الحمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثقل) .

(٦) الغول : المنيّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (غول) .

(٧) التغوّل : تغوّل الأمر تناكر وتشابه ، والتغوُّل التلوّن والتخيل ، والتوهان ، انظر : اللِّسان ، مادة (غول) .

يُلفـــــى[1] بــــه الـــــدَّليل[2] ذو التمحُّـــــلِ[3]
أضـــــيعَ مـــــن دمــــعٍ جـــــرى في طلـــــلِ
حربـــــــاؤه كالضـــــــارعِ المبتـــــــــهلِ
لــــــو أنَّـــــه مؤيَّـــــدٌ بـــمــقـــــولِ
صَـــلَّى إلى الشـــمسِ فبـــئس مـــا صَـــلي[4]
إن المجوســـــــيَّة شـــــــرُّ النَحَـــــــلِ
يـــــا لـــــك بيـــــداء كعـــــين الأحـــــولِ
لـــــو ظهـــــر المـــــوتُ بـــهـــــا لم يَنَـــــلِ
تـــــرى بـــهـــــا الواضـــــح كالمشـــــتكلِ[5]

فبدأ وصفَ الفلاةِ بواو الاستئناف ، ثم قال (دونه) أي بيني وهذا الممدوح ، وقدَّم شبه الجملة على المبتدأ ، لأنَّه أراد أن يبيِّن صعوبة حاله ، من بعدٍ عن الممدوح ، فقدَّم شبه الجملةِ لأهميتها عنده ، ثم جاء بوصفٍ لصحراءَ من خلال ألفاظٍ وصياغةٍ بدويَّة ، فقال : إنَّها مَرْتٌ ، أي لا نبات فيها ، وجعلها مثل ظهر الوعلِ من الوحوش ، وقد يكون أراد الملاسةَ وخلوَّها من النباتِ كخلوٍّ ظهر الوعلِ من الشَّعر ، ولكنه عندما جاء بألفاظ المخفِّ والمثقل ، وهي ما يوصف بها الفارسُ الذي يمتطي الجواد ـ فالمخفُّ : الخفيف الوزن والجسم ، والمثقل عكسُه ـ كان الأرجح أنه أراد بظهر الوعل ، صعوبةَ ووعورةَ ركوب المفازة واجتيازها ، لأنَّها تأتي على كلٍّ من حاول ذلك ، فـ (يأتي على) معناها الإهلاك والإفناء وذكر (المخفَّ) أولاً ، وأكَّد تقدمه بـ (قبل) لأنه أراد مفازة

---

(١) يُلفى : يوجَد ، انظر : اللِّسان ، مادة (لفا) .
(٢) الدليل : الذي يدلُّ الطريق ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلل) .
(٣) التمحُّل : الحيلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (محل) .
(٤) صليَ : لزم ، انظر : اللِّسان ، مادة (صلا) .
(٥) المشتكل : الملتبس ، المختلط ، انظر : اللِّسان ، مادة (شكل) .

صعبة الركوب والاجتياز كصعوبة امتطاءِ فارسٍ لدابةٍ غير ريِّضةٍ ، بل وحشٍ وعرٍ صعبٍ في الجبال ، متعسِّفٍ عليه ، أطاحَ به ، وهو خفيفٌ سريع نشيط .

ثم قال بعد ذلك (ويُذهبُ) معطوف على (يأتي) وأراد جمعه مع السَّابق في معنى الهلاك الذي في الفعل (يأتي) ، وذكر الغول وهو المنيَّة ، وجانس بينه والتغوُّل ، وتغوَّل الأمر تناكَرَ وتشابه ، وقد كانت العربُ تقول : إنَّ الغيلان في الفلواتِ تراءى للنَّاس ، فتغوَّلُ تغوُّلاً أي تلوَّنُ تلوُّناً فتضلِّهم عن الطريقِ ، وتهلكهم ، وقيل هي من مردة الجن والشياطين[1] ، وقد كان يكثر ذكرها في أشعارهم قديماً ، قال الأعشى[2] :

فوق ديمومةٍ[3] تغوَّلُ بالسَّفـ ـرِ قفارٍ إلاَّ من الآجالِ

وقال ذو الرُّمة[4] :

ورُبَّ مفازةٍ قَذَفٍ[5] جَموحٍ تغولُ منحِّبٍ[6] القَرَبِ اغتيالا

والتطيلي في قوله (يذهب الغول عن التغوُّل) أراد أن التغوُّل لا ينتهي ، وتظلُّ الصحراءُ مشكلةً ملبسةً مضلَّةً ، لأنه لا يأتي غيلانها ، والتباسَها هلاك وفناءٌ ، وفسَّرهُ بقوله بعد ذلك أن الدليل الذي يعرف الطريق معرفة جيدة ويحتال على الأمور ، بمعنى أنه يعرف كيف يتخلَّص من المآزق بخبرتِهِ ، (يُلفى) أي : يُلقى ويوجدُ ـ (أضيعَ من دمعٍ جرى في طللٍ) ، وجاء بـ (يُلفى) على البناء للمفعوليَّة لأنَّه أراد أنَّ الدليل العارف بمجاهل الصحراء ابتعلتهُ المفازة ، فدخلَ في متاهاتها ، حتَّى لم يعد يجد فيها شيئاً ، ولا يعرف فيها شيئاً ، وإنَّما هو (يُلفى) ، ويوجد ، أي يصادفهُ مسافرٌ أو مسافرون ، وربَّما

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (غول) .

(٢) ديوان الأعشى ، ص٢٩٧ .

(٣) الديمومة : المفازة لا ماء بها ، انظر : اللِّسان ، مادة (دمم) .

(٤) ديوان ذي الرُّمة ، ص٥١٩ .

(٥) قذف : بعيدة ، انظر : اللِّسان ، مادة (قذف).

(٦) المنحِّب : الشديد القرب من الماء ، والمنحّب ، الناذر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نحب).

يكون هالكاً ، لأنَّه شبهه بدمع جرى في طلل ، وقال (أضيعَ) وهو اسم تفضيل دلَّ به على اشتراك الدليل مع الدمع في صفةِ الضياع زاد فيها الدليل ، وذكَره الدمع على الطلل ، أراد به واقع حالٍ من الهلاكِ والأسى ، يجريِ فيه الدمعُ على من ترحَّل من أهلِ المكان ، وهو ما ناسب هلاك الدليل .

ثم انتقل من صورة الضياع والاختلاطِ إلى صورة الهجير والحرّ ، فذكر الحرباء ، وهي دويبةَ تكثر في الصحارى وتستقبل الشمس بوجهها دائماً ، تشبَّه بالمصلوبِ ، وتشبَّه بالمصّلِي الذي يتوجّه للقبله ، لتتبُّعها الشمس ، وميلانها وحركتها معها ، فذكر أنَّ (حرباءه) والهاء تعود على (المرْت) كالمتعبّد ، المتضرِّع ، الملازم مكانه ، أكّدَ هذا الوصف بقوله : إنَّه لو كان له لسانٌ ، وهو المِقْوَل لقويت صفة التضرُّع في الهيئة ، بالصلاة أي الدُّعاء والاستغفار بالقول .

ثم انصرف من صفتها إلى ذمٍّ فعلها بقوله (بئس ما صلي) أي بئس ما لزم ، وأضاف إلى هذا إخباره عن المجوسيَّةِ بأنَّها شرُّ النحل ، وأراد بهذه الصيغةِ الإخباريَّةِ المؤكَّدةِ بأنَّ ، أن يشبّه الحرباء في تتبُّعهَا الشمس ، بالمجوس الذين يتعبدون النَّار ، وناسب قوله (إنَّها شرُّ النحل) قوله (بئس) السابق ، وهي كلمة ذمّ ، لأنه أراد ذمًّا لحالةِ الحرباء ، وذمًّا للحرارة الشديدةِ في هذه الصحراء ، ثمَّ عاد بعد ذلك إلى البيداء المرت ، فقال : يالك ، وهي صيغة تعجب والمراد (فيالك من بيداء) ولكنه حذف (من) لإقامة الوزن ، وذكر عين الأحول[1] ، وقد ورد ذلك في الشعر القديم ، أنشد أبو النجم الراجز هشام بن عبد الملك[2]:

والشمسُ قد كادتْ ولمَّا تفعلِ كأنَّها في الأفقِ عينُ الأحولِ

(١) الحول في العين : أن يظهر البياض في مؤخرها ، ويكون السواد من قبل المآق ، انظر : اللِّسان ، مادة (حول) .

(٢) العمدة ، ١/٢٢٢ .

قال ابن رشيق : وقد كان هشام أحول فأمر به فحجب عنه مدّة ، وقد كان قبل ذلك من خاصته يسمر عنده ، ويمازحه .

شبَّه الشمس في انقلابها عند الغروبِ بعين الأحول[1]، وقد يكون التطيلي أراد من ذكره الحول ، صورة انحرافِ العين وظهور البياض أكثر وهو ما يشبه الفلاة البيضاء الخالية من الزرع والنبات، كما قد يكون أراد عدم معرفةِ ما فيها ، واختلاط الأمور والتباسها ، كالتباس الرؤيةِ على الأحول ، وهو ما جاء به في أسلوب الشرط في البيت التالي عندما قال: إنَّه لو ظهر الموتُ بها لم يَنَلْ شيئاً ، فنفى أن يكون الموتُ قد نال شيئاً منها ، لأنه أراد ضلالاً ، وهلكة ، واختلاطاً في صورة الصحراء ، بحيث يضلّ الموتُ عن مناله ، وهو مناسبٌ لقوله سابقاً (يذهبُ الغَول) و (يُلفى الدليل) ، وهو ما فسَّره أكثر بقوله في أسلوب الإخبار (ترى بها الواضح كالمشتكل) ، فجاء بالفعل والفاعل في قوله (ترى) وعلَّق به الجار والمجرور (بها) وقدَّمه على المفعول ، والباء تدلُّ على الإلصاق ، أي أنَّ هذه الصفة ملازمة لها ، وهي أن يصبحَ الظاهرُ غير معروفٍ ، وتختلطُ الأمور فيها حتَّى لا يُتبيَّن بها أيُّ شيء، وهو ما أراده بعين الأحول، وضلالِ الموت .

والأسلوبُ ظاهرُ التبدّي ، وهو في إيقاعه ، وألفاظهِ ، ونسيجه ، قريبٌ من الأرجوزة السابقة للشاعر ، كما أنه يلحُّ على صورتي (الضلال والاختلاط) و(الهجير ولفح الشمس) كما فعل في الأرجوزة السابقة ، وجمع في هذا النسيج كثيراً من الألفاظ البدويَّة المتعلِّقة بالصَّحراء ، من مثل : مَرْت ، الغول ، التغوُّل ، الدليل ، الطلل ، الحرباء ، البيداء ، المشتكل ، فجاء بصياغةٍ بدويَّةٍ لصورةِ هولٍ مخيف ، يجعلُ الغول لا يأخذه التغوُّل ، كما يضلّ الموتُ فلا ينال ما يريد ، ويضيعُ الدليل كدمعٍ على طلل ، كما تصلِّي الحرباء للشمس ، فالشاعر يعمد إلى حشد ألفاظٍ بدويَّة في نسجٍ بدويّ ، وهو في ذلك متبدٍّ متكلِّفٍ لهذا الأسلوب ، الذي ذكرنا أن الشعراء قد يعمدون له لإظهار البراعةِ ، والمعرفة اللغويَّة والقدرة على الصِّياغة البدويَّة الأعرابيَّة .

---

(١) انظر : ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري ، ٣٥٩/١ .

وفي مثل هذا النسيج والصياغة والصنعةِ البدويَّة ، يقول ابن عبد ربِّه في سياق وصف الطلل[1] :

والـــدَّارُ بعـــــدهمُ مقسَّـــــمةٌ بـــين الرِّيـــاحِ وهـــاتنِ[2] الـــودقِ[3]
درَجَ الزَّمـــانُ علـــى معارِفهـــا[4] كمـــدارجِ الأقـــلامِ في الـــرَّقِ[5]
لم يبـــق منـــها غـــيرُ أرمـــدة[6] لبِّـــدن[7] بـــين خوالـــد[8] وُرق[9]
وســطورُ آنـــاءٍ[10] بعقوتـــهـــا[11] محنـــوَّةٍ[12] كأهلَّــــةِ المحـــقِ[13]

فالسياق في وصف الطلل ، والوقوف على الدّيار جاء في بدايته بواو الاستئناف ، وبأسلوب خبريّ ، قال : (الدار بعدهم مقسَّمةٌ) قدَّمَ الظرف (بعد) المضاف إليه الضمير الدال على المرتحلين ، لأنه أراد الإخبارَ عن الدار وأنَّها

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتَّاني ، ص١٦٦ .

(٢) الهاتن : من المطر فوق الطلّ ، والهتان المطر الضعيفُ الدائم ، انظر : اللِّسان ، مادة (هتن) .

(٣) الودق : المطر كلّه شديده وهينه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ودق) .

(٤) معارفها : معارف الأرض ، أوجهها وما عرف منها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرف) .

(٥) الرق : الصحيفة البيضاء وما يكتب فيها ، وهو جلد رقيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقق) .

(٦) أرمدةٍ : جمع رماد وهو دقاق الفحم من حراقة النار وما هبا من الجمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (رمد) .

(٧) لبِّدن : لبد بالمكان أقام به ولزق ، فهو ملبَّد به ، انظر : اللِّسان ، مادة (لبد).

(٨) الخوالد : الأثافي ، انظر : اللِّسان ، مادة (خلد) .

(٩) ورق : من كل شيء ما كان لونه لون الرماد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ورق) .

(١٠) آناء : جمع نؤي وهو الحفير حول الخباء ، يدفع عنها السيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نأى) .

(١١) بعقوتها : بساحتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقا) .

(١٢) محنوّة : متعطفة ، انظر : اللِّسان ، مادة (حنا) .

(١٣) المحق : النقصان ، والمحاق آخر الشهر إذا امّحق الهلالُ فلم يُرَ ، انظر : اللِّسان ، مادة (محق) .

(مقسمةٌ) (بعدَ) ذهابهم ، فقدَّمه للأهميَّة ، ثم جاء بظرفِ المكان (بين) وهو متعلّقٌ بمقسَّمةٍ ، التي تبين أخذ الرياح والمطر من الدَّار ، وخصَّ من المطر هاتن الودق ، لأنه المطرُ الضعيفُ الدائمُ القطر ، وأراد بذلك أن يدلَّ على شدَّة التعفّي لأنه مطرٌ دائم ، ثم قال في أسلوبٍ خبري أيضاً :

(درج الزمان على معارفها)

أي مرَّ الزمان على أوجهها وما عُرِفَ منها ، مثل مرِّ الأقلام في الصحيفة البيضاء .

فذكر من صفتها الانطماس ، وهو أنَّه ذهبت معالمها كما تُذْهِبُ الكتابةُ البياضَ في الجلد الرقيق ،وهو الوصف الذي كان يأتي كثيراً في الشعر القديم ، فقد يذكر الجاهليُّون الرياح والمطر في سياق العفاء ، أو سياقِ تجديد الطلل ، كما يذكرون الكتابة في هذين السياقين أيضاً ، ثم قال (لم يبق منها غير) وهو استثناءٌ وقصر ، نفى فيه أن يكون بقي منها شيء ، لأنه ذكر تقسُّمها بين الرياح والمطر ، وطمسَها كالورق بعد الكتابة ، ثم استثنى بـ (غيرِ) وأراد أن يدل بهذا الاستثناء على وجود أثرٍ ضعيف ذكره فقال (أرمدةٍ) وهو جمع للرماد الذي يبقى بين الأثافي ، ويقال للأثافي خوالد ، لطولِ بقائها بعد دروس الأطلال ، قال زهير[1] :

وغـــير ثـــلاثٍ كالحمـــامِ خوالـــدٍ وهـــابٍ محيـــلٍ هامـــدٍ متلبِّـــد

وقال ابن عبد ربِّه (لُبِّدن) ولبَدَ الشيء بالأرضِ أقام به ولصق ، وبناه للمجهول ،لانعدام معرفة الفاعِل في بقاء هذا الأثر اللاصق بالأرض .

ثم ذكر أن هذه الخوالد (ورق) وهي غبرة اللَّون ، فالرَّمادُ ملبَّدٌ بين أثافٍ كالرَّمادِ أيضاً ، فهي صورةٌ معمَّاة للونٍ متماثلٍ ، أراد به التقادم وانطماس المعالم ، وأضاف في وصف هذا الأثر ، ما يبقى بعد البدو من النؤي ، وهو الحفير حول الخباء أو الخيمة يدفعُ عنها السَّيل ، فعطفه على أرمدة ، وجاء

---

(١) ديوان زهير بن أبي سُلمى ، ص١٦٦ .

بالجار والمجرور المبيِّن لمكانها فقال (بعقوتها) أي بساحتها ، ثم أخبر أن هذه النؤي متعطّفة كالهلالِ آخر الشهر ، وأراد صورة الهلالِ الضئيلة ، وهي قريبةٌ من صورةِ الحفير الكليلة ، وقديماً قال النابغة عن النؤي (لأياً ما أبيّنها) [1]، أي أنني لا أكاد أتبيَّنها ، وهو ما أراده ابن عبد ربِّه بالتشبيه ، فنسج ابن عبد ربِّه هذه الصُّورة البدويَّة للطلل الداثر نسجاً بدويًّا ، ذكر فيه ما ذكرهُ الجاهليُّون من العوامل التي تطمس معالم الطلل كالرياح ، والمطر ، وذكر أيضاً الكتابة والخط ، وبقيَّة الأثر ، من أثافٍ ورمادٍ وحفير ، وصاغها على الطريقة الجاهليَّة البدويَّة ، فالطلل يُمحا ويُطْمس كطمس الكتابة للصحيفة البيضاء ، والنؤي ضئيلٌ متحنٍّ يكاد لا يُتبيَّن ، وهي قرائن كان يذكرها الشعراءُ الجاهليون للدلالة على شدَّة اندثار وانطماس الديار ، وابن عبد ربِّه عُرف بمقطعاتِهِ دون القصائد الطويلة ، ويدلُّ حشده للألفاظ والصيغ البدويَّة في هذه المقطوعة القصيرة ، على شدَّة العناية بالبداوة ، والتتبُّع لأساليب الأعراب ، والتبدِّي في مجاراتهم .

وقد يأتي هذا النسيج البدويّ في قصائد طويلةٍ ، ومن شعراءَ عُرفوا بشعرهم الأندلسيّ الرقيق ، ومنهم ابن حزم الذي يقول من قصيدةٍ طويلة[2] :

أجل هو ربعٌ[3] قد عفتــه الــرَّوامس[4] فهل أنتَ فيه ويــبَ غــيرِكِ[5] حــابس

---

(١) ديوان النابغة ، ص٧٦ .

(٢) القصيدة في ديوان ابن حزم ، تحقيق : دكتور صبحي عبد الكريم ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط . الأولى ، سنة ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م ، ص٦٤ .
ودكتور إحسان عبَّاس ، حقق جزءاً من قصائد ابن حزم وأثبتنا تحقيق دكتور إحسان عبَّاس لأنه أسلم من وجهة نظرنا ، من كتابه ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص٣٨٣ .

(٣) ربع : ربع بالمكان اطمأن به ، والربع المنزل والدار ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربع) .

(٤) الروامس : الرياح تحمل الرمس وهو التراب ، انظر : اللِّسان ، مادة (رمس) .

(٥) ويب غيرك : ويب كلمة مثل ويل ، ومن العرب من يقول (ويبك) و (ويب غيرك) ، انظر : اللِّسان ، مادة (ويب) .

لقـــلَّ لـــه أن تحـــبسَ العــيسَ ســـاعةً ... عليه فتبكيكَ الرســـومُ[1] الطـــوامِسُ[2]
على أربُـــعٍ قـــد كـــان دهـــراً بطولِـــه ... للـــهوكَ فيـــه مَرْبـــعٌ[3] ومجـــالسٌ
عسى يستجيبُ[4] الرَّبعُ إذ أنـــا ســـائلٌ ... وهل ترجعُ اللفظَ الطلولُ الـــدوارسُ[5]
فعجتُ[6] عليه ناقتي وهـــو سبســـبٌ[7] ... سقته وجادته[8] الغمـــامُ الـــرواجسُ[9]

فبدأ ابن حزم الوقوفَ على الطلل بلفظ (أجل) وهو بمعنى نعم ، إلاَّ أنه أحسن من نعم في التصديق ، يقال (أجل) لتصديق خبر تخبر به ، فيقال : فعل ذلك ، فتصدقه بقولك له : أجل[10] ، وأجل هنا جوابٌ لخبر مقدَّر هو : (هذا هو الربع) وهو ما صدَّقه ابن حزم بقوله (أجل هو ربعٌ) ثمَّ جاء بإخبارٍ آخر ، أكّده بقد التي للتحقيق قال : (قد عفتهُ الروامس) وهي الرياحُ التي تحملُ الرَّمسَ أي التراب على الآثار فتعفِّيها ، وهو هنا يخاطب نفسه ، فيخبرُ ، ويصدِّق الخبر ، ويؤكِّده ، وهو أسلوبُ (تجريد) درج عليه الشعراء قديماً ، ومنه قول الأعشى مخاطباً نفسه[11] :

ودِّعْ هريـــرةَ إنّ الركـــب مرتحـــلُ ... وهـــل تطيـــقُ وداعـــاً أيُّهـــا الرجـــلُ

---

(١) الرسوم : الآثار وما بقي منها ، انظر : اللِّسان ، مادة (رسم).
(٢) الطوامس : الدارسة ، المنمحية ، انظر : اللِّسان ، مادة (طمس).
(٣) المربع : المنزل والمقام ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربع).
(٤) يستجيب : يجيب ويرجع الكلام ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوب).
(٥) الدوارِس : درس الشيء عفا ، انظر : اللِّسان ، مادة (درس).
(٦) عجتُ : عطفت ، وملت نحوها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عوج).
(٧) السبسب : الأرض القفر البعيدة الغليظة الجدبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبسب).
(٨) جادته : مطر جود غزير ، وقيل الجود من المطر الذي لا مطر فوقه ، انظر : اللِّسان ، مادة (جود).
(٩) الرواجس : رجست السماء إذا رعدت ، والرجس الصوت الشديد الرعد ، وهو صوت مختلط عظيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجس).
(١٠) انظر : اللِّسان ، مادة (أجل).
(١١) ديوان الأعشى ، ص٢٧٨ .

ثم سأل ابن حزم نفسه مرّةً أخرى (على التجريد أيضاً) فقال : (هل أنتَ فيهِ ويبَ عيركِ حابسُ) أي هل أنت حابسٌ نفسك أو مطيَّتك أو كليهما ، واعترض بجملة ـ ويب غيرك ـ (ويب) كلمة مثل (ويل) تقول العربُ (ويب غيرك) وفي حديث إسلامِ كعب بن زهير[١] :

وخالفتَ أسـبابَ الـهُـدى وتبعتـهُ على أي شيءٍ ـ ويب غيرك ـ دلّكَا

وابن حزم هنا يخاطب نفسه ، ويحثُّها على الوقوف بالطَّلل ، لأنَّه قال بعد ذلك (لقلَّ له) واللام في (لقلَّ) جواب يمين مضمرة ، أي : (يميناً قلَّ أو قليلٌ له حبسي ناقتي ، ساعةً من الزَّمن عليه) ، وساعةً منصوب على التمييز ، وقال (له) لأنَّ لام الجرّ تدل على الملك والاستحقاق ، فجعل حبسه الناقة على الطلل ملكاً للطلل يستحقه ، وهو مناسبٌ لليمين التي قطعها على نفسه ، وقال (عليه) لأنَّها تدل على الاستعلاء المناسب لصورة بدويٍ على راحلةٍ واقفٍ بطللٍ منطمسٍ لم يبق منه غير آثارٍ لائطةٍ بالأرضِ ، ولذلك ذكرَ البكاءَ بعدَ الوقوفِ ، وجعل الرسومَ فاعلاً لأنَّ رؤية العفاءِ مهيِّجةً للدمع مثيرة له ، ثمَّ ذكرَ أنَّ الدَّمعَ جَرَى على (أربُعٍ) ، بما دلَّ به على مكان إقامةٍ قديم ، وجاء به بصيغةِ الجمع الدالة على أنَّها كانت دياراً كثيرةً عامرةً ، ثمَّ أخبر عنها ، محقّقاً هذا الخبر بقد فقال (قد كان دهراً بطوله للهوكِ فيه مربعٌ ومجالسٌ) وقوله (دهراً بطولِهِ) فيه مطابقةٌ وإيحاءٌ بإجابةٍ للصيغة السابقة في اليمين ، عندما قال (قلَّ له أن تحبسَ العيسَ ساعةً) لأن الدهر هو الأمدُ الممدود ، وقيل ألف سنة[٢].

وأراد الشاعر بذكر الدهر الزمنَ الطويل الذي قضاهُ في الربع ، وأنَّه قليلٌ فيه ـ لحقّ الوفاء ـ الوقوفُ عليه ساعةً من الزَّمن .

ثم قال (للهوكَ فيه مربعٌ ومجالسٌ) أراد مربعٌ ومجالسٌ للهوك فيه ، فقدَّم اللَّهو ، لأنه أراد ما في الكلمة من دلالاتِ الصِّبا ، والصبوة والشباب ، وهي

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ، ص٤ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (دهر) .

أقوى الأسباب الداعية للبكاء على الماضي والذكريات ، ثم قال (فيه) وقدَّمها على (المربع) ، لأنَّها دالَّةٌ على الوعاء والظرفيَّة ، وفي ذكرها بعد اللَّهو في الصياغة ، دلالة ارتباط بين المكان وذكريات الشباب ، وهو ما كنّى عنه بذكر المربع والمجالس ، ثم استنطقَ الطلل على العادة الجاهليَّة فقال (عسى يستجيبُ الربعُ) وعسى حرفٌ فيه ترجٍّ وطمع ، تمنّى به أن يجاوبه الرَّبعُ ، وأن يُرجع الكلام ، عند سؤاله له ، وهو ما دلَّ عليه (بإذ) الظرفيَّة ، ثمَّ جاء بعدَ الدُّعاء بالسؤال : (وهل تُرجعُ اللفظ الطلولُ الدوارسُ؟) ، وفيه التفاتٌ من الحضورِ إلى الغياب ، وعودةٌ من الوهم في تمنّي الجواب ، إلى الحقيقةِ الصادمةِ في اليقينِ بأنَّ الطلولَ العافيةَ لا تُجيب .

ثم قال (فعجتُ عليه ناقتي) والفاء للتعقيب والترتيب ، ودلَّ بذلك على أنَّ ما سبق من الوقوف والبكاء والسؤال ، كان حديثَ نفسٍ لرجلٍ أراد حبس ناقته ، ثم حدَّثته نفسه بما سيكون منه من البكاء ، ومن الطلل من الخرس ، ومع علمه بذلك ، وبما سيجيشُ في قلبه من العواطف والألم ، قال (فعجتُ عليه ناقتي) أي عطفتُ ناقتي عليه ، ثمَّ اعترض بقوله ـ وهو سبسبٌ ـ أي مقفرٌ خال ، وأراد من وراء هذه الجملةِ أن يدلَّ على شيمةِ الوفاء عنده ، لأنَّه ذكر أنه كانَ له دهرٌ فيه ، وأن الوقوف به ساعةٌ قليلٌ ، وهو هنا يدلُّنا بالصياغةِ على أنَّه وقف عليه ، رغم ما حاك في النَّفس من تصوُّر الألم ، ولذلك أردف بدعاءٍ للطلل بالسقيا ، وهي شيمةُ وفاء أيضاً تظهر في الدعاء بالخير والبركة ، فقال (سَقَتْه وجادته) وسقت أي أمطرت ، أمَّا جادت فهي لفظٌ سَخيٌّ أراد به مطراً غزيرٌ جواداً ، ولذلك قال (الغمامُ الرواجسُ) بصيغِ الجمع وأراد الكثرة ، والرجس : صوت الرعد الشَّديد ، ولا يكون هذا الصوت الشديد إلاَّ إذا كان معه مطرٌ مغدقٌ غزيرٌ ، فجمع إلى لفظ (جادت) لفظَ (الرواجس) فدل على سقيا عظيمة ، لأنه مكانٌ عزيزٌ عليه ، وقرنَ السُّقيا بالدُّموع في حذوِ أسلوب بدويٍّ فقال[1] :

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، دكتور إحسان عبَّاس ، ص٣٨٤ .

وقلتُ ودمعي ساكبٌ متحدِّرٌ ... وإنسانُ عيني[1] في هواميه[2] غامسُ

لقد كان عيشي فيكَ لو دامَ مونقاً[3] ... ولكن أبتْ ذاكَ الحظوظُ الأباخسُ

ليالِيَ من أهواهُ يُمسي كأنَّهُ ... من العفرِ[4] ظبيٌ بالصَّريمةِ[5] كانسُ[6]

وإذْ شملنا باقٍ جميعٌ محسَّدٌ ... ولم تقتطعْ ذاكَ الدُّهورُ الدَّهارسُ[7]

فكان جوابُ الرَّبعِ إذ أنا سائلٌ ... وهل تفهمُ القولَ الربوعُ الأخارسُ

كذلكَ حكمُ الدَّهرِ آتٍ وذاهبٌ ... وفي الدَّهر أصنافٌ مدوسٌ ودائسُ

فعرَّجتُ عنهُ مُوجَعَ القلبِ ثاكلاً[8] ... وبين الحَشَا لذعٌ[9] من الحزنِ ناخسُ[10]

(وقلتُ) الواو للعطف ، عطف (قلتُ) على (عجتُ) ثمَّ قال (ودمعي) ، والواو هنا واو الحال ، أي أنَّني حدَّثتُ حالةَ كونِ دمعي منصبًّا متحدِّراً ، وعيني غارقةٌ في الدمع المنهمر مغموسةٌ فيه ، وجملة الحال أراد بها صفته وقتَ الحديث ، وجاء بأسماء الأفعال : (متحدِّر) و (ساكب) و (غامس) ، في دلالةٍ أيضاً على التجدُّد والحدوث ، وهي ألفاظ أفاض من خلالها في بيان قوَّةِ دمعه ، وغزارته ، ليدلَّ على شدَّةِ ألمه ووجده ، وهي طريقةٌ وأسلوبٌ جاهليٌّ قديمٌ درج عليه الشعراء ، ثمَّ جاء بعد بيان الحال بالقول وهو : (لقد كان عيشي

---

(١) إنسان عيني : المثال الذي يُرى فيه السواد ، وإنسان العين ناظرها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أنس) .

(٢) هواميه : همت عينه صبَّت دمعَها ، وقيل سال دمعها ، انظر : اللِّسان ، مادة (همي) .

(٣) مونقاً : الأنق الإعجاب بالشيء ، والأنق حسن المنظر ، وإنه لأنيقٌ مونق إذا أعجبك حسنه ، انظر : اللِّسان ، مادة (أنق) .

(٤) العفر : من الظباء التي تعلو بياضها حمرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عفر) .

(٥) الصريمة : القطعة المنقطعة من معظم الرَّمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (صرم) .

(٦) الكانس : الظبي يدخلُ في كناسه ، وهو موضعٌ في الشجر يكنُّ فيه ويستتر ، انظر : اللِّسان ، مادة (كنس) .

(٧) الدَّهارس : الدواهي ، انظر : اللِّسان ، مادة (دهرس) .

(٨) ثاكلاً : فاقداً الحبيب ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثكل) .

(٩) لذع : حرقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (لذع) .

(١٠) ناخسٌ : غارزٌ ، انظر : اللِّسان ، مادة (نخس) .

فيك ـ لو دام ـ مونقاً) واختلفَ هنا استخدامه للأفعال ، فبعد أن كانت حاضرةً في صفةِ المدمع ، غابت في مقولِ القول ، لأنَّه وصف عيشاً ماضياً ، ذاهباً ، حضر لذهابه الدَّمع ، فجاءَ بجملةٍ خبريَّةٍ مؤكدَّةٍ بقد التي للتحقيق ، و (كان) الدالة على الماضي ، وخبرها مونقاً أي معجباً ، واعترض قبل الخبرِ بقوله ـ لو دام ـ أي امتنع دوامُ هذا العيش ، ثمَّ ذكر السبب بعد (لكن) التي للاستدراك ، بأنَّ النصيبَ أو الحظّ الظالم هو الذي منعَ دوامَ هذا العيش ، الذي فصَّل القول فيه بعد ذلك ، فقال : (إنَّه كانت فيه ليال تُمْسِي من يهواها في خدرها ، وكأنَّها ظبيٌ أعفرٌ في كِنَاسِه) وخصَّ المسَّاء لأنَّه مناسبٌ لليال ، ومناسبٌ أيضاً للدخول في الخدر للرَّاحة ، وذكر الخدر والمساء ، لأنَّه وقتٌ يُسْتترُ فيه ، ويمكنه الاجتماعُ في هذا الوقت والمكان بمن يحبَ ، ولذلك قال (وإذْ شملنا) و (إذ) هنا ظرفٌ للزمن الماضي ، أي أن هذه اللَّيالي ، كانت في ذلك الوقت ، الذي كان الشمل فيه جميعٌ ومحسَّدٌ ، ولم تقتطع ذاك الدُّهورُ الدَّهارسُ ، وجميعٌ بمعنى الشمل واحد ، وقوله (باق) أي كان الشملُ مُبقًى عليه متروكاً في ذلك الزَّمان ، ولم نكن متفرِّقين ، ولهذا كان (مُحَسَّداً) ، وهو لفظ يدل على الفعل والمفعول ، أي أننا كنَّا محسودين يتمنى الآخرون زوال وذهاب ما نحنُ فيه من نعمةِ الاجتماع .

وقوله (لم تقتطع ذاك الدهور الدهارس) أراد أن الشَّمل كان مجتمعاً ، لم يُقتطع في ذلك الوقت ، وجاء بـ (تقتطع) وهي صيغة افتعال دلَّ بها على قوَّةِ هذا الشَّمل والاجتماع ، الذي أدَّى إلى قوَّة اللفظ المراد به صعوبة قطعه ، ووصفه الحالة السابقة بالمحسَّدة ، وبأنَّ الدواهي لم تنلها حال الاجتماع ، أراد به بيان السَّبب الذي أدَّى إلى هذا التفرُّق ، وهو أنَّهم حُسِدوا ، وأنَّ المصائب فرَّقتهم .

ثمَّ جاء بجواب الربع ، بعد أن فصل بينه و (قلتُ) بثلاثةِ أبياتٍ ، بيَّن فيها واقع الحال السَّابق له في الديار ، الذي أدَّى إلى انسكاب الدمع ، فقال[1]:

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، دكتور إحسان عباس ، ص٣٨٤ .

فكان جـوابُ الرَّبـع إذ أنـا سـائلٌ وهل تفهمُ القـولَ الربـوعُ الأخـارسُ
كـذلك حكـمُ الـدهرِ آتٍ وذاهـبٌ وفي الدَّهرِ أصـنافٌ مـدوسٌ ودائـسُ

فعقَّب بعطفِ الفاء ، وجاء بجملةٍ خبريَّةٍ عن إجابةِ هذا الربع ، فصل بينها والجواب بجملة اعتراضيَّة في قوله (وهل تفهمُ القولَ الربوعُ الأخارسُ) بيَّنَ فيها أنَّه سأل سؤال العارف الموقنِ بعدمِ الإجابة ، لأنَّ الربوع لا تجيب ، وإنَّما توهَّمَ ما ذكر أنَّه جوابَها ، أو حدَّث عنها ، وأخبر بما لو كان لها لسانٌ تتكلَّم به لقالت وحدَّثت ، كما قال النابغة[1]:

واسـتعجمت دارُ نعـمٍ مـا تكلِّمُنـا والـدار لـو كلَّمتنـا ذات أخبـارِ

فكان جوابُ الدار هو جوابُ الحال المشاهدَةِ عنده ، والتي تقول : إن الدهر يأتي ويذهب ـ وأراد توالي الزَّمان ـ وأنَّ الناس مدوسٌ ودائس ، والدوسُ شدَّة وطئ الشيء بالأقدام ، وأراد استعلاء بعض البشر على غيرهم ، أو أنَّ الناس يسعونَ إلى ما يريدون ، وقد يدوسون في طريقهم ، من هم مثلهم ، أو أراد اختلاف الحظوظ ،وقد يكون أراد أن الهمم العالية هي التي تدفع بعض الناس إلى تركِ السفاسفِ من الأمور ، ودوسها ، والتعالي عليها ، والتعالي أيضاً فوق الحاسدين والكائدين ،يرجِّح هذا المعنى قوله في القصيدة لاحقاً[2] :

سَمْونا فمـا في دهرنـا غـيرُ حاسـدٍ وطُلْنَا فلم تُدرَكْ فمـا ثَـمَّ نـابسُ[3]

وهـو بعـد هـذه الحكمـة الـتي استنطق فيهـا الطلـل ، خـتم الوقـوف بقولـه (فعرَّجتُ عنه) بعد أن كان عاج عليه ، وذكر حاله عند هذا الرجوع ، وهو أنَّـه موجع القلب ، والوجع اسمٌ جامعٌ لكلِّ ألمٍ أسنده للقلب ، وأنَّه كان ثاكلاً ، أي فاقداً للحبيب ، والثكلُ أشدُّ حالاتِ الفقـدِ علـى الـنفس ، وذكـر حرقـة الحـزن ونخسه ، أي ما يغرزهُ في النفس من ألمٍ ممضّ .

---

(١) ديوان النابغة ، ص١٤٥.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص٣٨٥.

(٣) نابس : النبسُ أقلُّ الكلام ، وما نبس أي ما تكلَّم ، انظر : اللِّسان ، مادة (نبس).

وقد حدَّث ابن حزمٍ في بدايةِ القصيدةِ بأنَّه (ستُبكيه الرُّسوم) وتنبَّأ بالوجع ، ولكنَّه بعد الوقوف والاسترجاع للزمن الماضي ، حشد في بيتٍ واحد عدَّة ألفاظ ، كلُّها تدلُّ على الحزن ، واللَّوعة ، والألم ، وشدَّة الفقد ، وكأنَّه يخبرنا بأنَّ واقعَ الحال في الألم أشدُّ ممَّا كان يتصوَّره أو يتخيَّله .

والنسيجُ في هذه القصيدةِ بدويُّ الألفاظ ، والصياغة ، والبناء ، لأنه ذكر التعريج ، والوقوف ، والبكاء ، واستذكر الأيام الماضية ، واستنطق الطلل ، وحدَّثه ، وأخبر عنه ، وكلُّها عناصر بدويَّة ، نسجها في أسلوبٍ بدويّ ، وَذِكْرُ الشاعر العيش الماضي الذي تمنّى أن يدوم ، وبكاءُ الطلل الداثر ، وذكرياتِهِ الغابرة ، متعلِّقٌ بقوله بعد ذلك يذكر الشيب (كأنَّ بياض الرأس ينفي سواده) [1] ثم قوله يذكر زهدَ النساء فيه لكبر سنّه :

(تناءين عني كالغصونِ) [2]

وفيها[3] :

وقد طالما ارتاحت وهزَّت غصونَها بقربيَ أحقافُ الرمالِ الأواعسُ[4]

فأخبر عن حاله في الزمن الماضي مع النساء ، بخبر مؤكّد بقد في قوله (وقد طالما ارتاحت وهزَّت غصونها) وطالما تفيد وقوع الفعل بكثرة ، أي كثيراً ما تكرَّر منهنَّ فعلُ الارتياح ، وقوله (هزَّت غصونها) لفظٌ موحٍ بدلالةِ الميلان إليه ، وهو مناسبٌ للارتياح ، وأخّر الفاعل وهو (أحقافُ الرمالِ الأواعسُ) وقدَّم عليه (بقربي) لأن الباء دالَّةٌ على الإلصاق ، والجار والمجرور متعلِّقٌ بالارتياح ، والاهتزاز ، وأراد أنَّ هذين الفعلين ، من نساءٍ ملاصقاتٍ له قريبات منه جداً ، وهو لمَّا ذكر الغصون ـ وهي تحمل دلالة جمالِ القوام ، والتعطُّف والميلان المناسب لاهتزاز الغصون وارتياحها ـ ذكر إضافةً لذلك

(١،٢،٣) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، دكتور إحسان عبَّاس ، ص٣٨٤.

(٤) الأواعس: جمع وعساء وهي السهل الليِّن من الرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (وعس).

الأحقاف والأواعسَ من الرمال ، والحقف المعوَّجُ من الرمل ، والأوعس اللين منه ، وجمع في هذين اللفظين ، بين دلالاتِ الامتلاء والنعومة ، وأراد الأرداف ، وهو ذوق ووصفٌ بدويّ .

وابن حزم دلَّ بذلك على أن الوقوف البدويَّ السابق على طللٍ داثرٍ ذهب أهله ، وزمانٍ مضى تقضّى ، كان له فيه عيشٌ مونقٌ ، وبكاءَهُ عليه ، من خلالِ طريقةٍ وصياغةٍ ونسيجٍ بدويّ ، أراد به إبراز حالةٍ مشابهة للشيب الحاضر ، الذي بكى فيه أيَّام الشباب والصبوة واللهو .

ومن الشعر الأندلسيّ الذي يظهر فيه مثل هذا النسيج البدويّ ، قصيدة لابن حمديس وصف فيها الربع والطلل ، فقال[1] :

مرابعُهم للــوحشِ أضــحتْ مراتِعَــا[2]	فقفْ صابراً تُسعدْ على الحــزنِ جازِعَــا
فمـــن مبلـــغُ الغـــادين عنَّـــا بأنَّنـــا	وقفنـــا وأجرينـــا بـــهـــنَّ المـــدامعَا
معالــمُ أضحتْ من دُماها عــواطلاً[3]	فقل في نفــوسٍ قــد هجــرنَ المطامِعَــا
وفينا بــمــيــثـــاقِ[4] العهودِ[5] لربْعِها	كأنَّ عهودَ الربــعِ كانــت شــرائِعَا[6]

بدأ ابن حمديس القصيدة بوصف حال الطلل الذي وقفَ عليه ، واستفتح بذكر المرابع وقدَّمها على أضحت ، لأنَّها مناطُ الحديثِ وعنها سيكون الإخبار ، فأراد التنبيه ، وشدَّ انتباه السامع وتشويقه لخبرها ، حتّى إذا ذكره ـ أي هذا الخبر ـ قرَّ في النفس ، وثبت وتأكَّد ، وهو قوله : إن هذه المنازلُ والديار ، أصبحت ملهًى وملعباً ، ومرتعاً للوحش ، ولا يكون المكان ملعباً وملهًى

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٢ .

(٢) مراتعاً : ملعباً وملهى ، والرتعُ الرعيُ في الخصب ، انظر : اللِّسان ، مادة (رتع).

(٣) عواطلاً : خوالياً ، انظر : اللِّسان ، مادة (عطل).

(٤) الميثاق : العهد ، انظر : اللِّسان ، مادة (وثق).

(٥) العهد : الموثق واليمين ، التي تستوثق بها ممن يعاهدك ، انظر : اللِّسان ، مادة (عهد).

(٦) الشريعة : الدين والملّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرع) .

ومرتعاً ، إلاَّ إذا ارتبط بالدِّعة والأمان ، فدَّل بهذا اللفظ على طول المدّة التي قضاها الوحشُ فيه حتّى ألفه ، وأمِن فيه فرتع ولعب ، وهو ما يدلُّ بالتالي على تقادم العهد ، وانقضاء زمانٍ طويلٍ على خلوِّه من أصحابه ، ولذا استتبع هذه الحقيقة المؤلمة ، أن يلتفتَ بالكلامِ من الغيبةِ إلى الحضور ، ويحدِّث نفسه على التجريد ،ويأمرها بالصَّبرِ في الوقوف على هذه المرابع حتّى يساعدَ نفسه الجَزِعَة ، والجزعُ نقيض الصبرِ طابق بينهما ، وقال (صابراً) و (جازعاً) لأنه أراد جزعاً منهُ تطلّب صبراً منه ، ثم بدأ في البيت التالي بأسلوبٍ إنشائي استفهم فيه (من مبلغُ الغادين)؟ أي الراحلين الذين كانوا في المكان (بأنه وقفَ على الديار وأجرى الدمع) ، وهو خبرٌ عن الوقوفِ وإجراء الدمع أكَّدهُ بأن وأسنده إلى نفسه ، وجاء بهذا التأكيد ليدلَّ على شيمةِ وفاءٍ تمنّى عن طريقِ الاستفهام أن يعلموا بها ؟ ! ثمَّ عاد ليصف هذا الربع ، في تكرارٍ للصُّورةِ السابقةِ ،وتأكيدٍ لها عن طريق استرجاع الحالة القديمة ، من أنَّها كانَت حاليةً بالنساءِ الجميلاتِ المشبهاتِ الدُّمى ، في جمالِ الصُّورةِ وتمامها ، وهو اللفظ الذي ذكره الجاهليُّون كثيراً في معرض وصفِ النساء ، وقال (أضحت عواطلاً) أي أنها أصبحت خاليةً منهنّ ، ليدلَّ على واقع الحال الرَّاهن ، وهو الأمر الذي أدَّى به إلى الإخبارِ عن نفسه أنَّها هجرت كلَّ مطمعٍ بعد هذا المشهد ، وقال (هجرن) ، والهجر الصرم الذي عدَّاه للمطمع وفيهما دلالةُ يأسٍ ، وانقطاع أملٍ ورجاء ،وهي ألفاظٌ حفل بمثلها وصفُ هذه المشاهد البدويَّة للربع المقفر في الشعر القديم ، ثمَّ عادَ فأكَّدَ ما أخبر عنه من شيمةِ الوفاء عنده سابقاً ، والتي جعلته يقف بالدَّار ويجري المدامع ، أكَّدها مرَّة أُخرى بالأسلوب الخبري في قوله (وفينا بميثاق العهود) وأن هذه العهود كانت كالشرائع ، فذكرَ العهد مرَّتين ، وهو اليمين ، وأكَّده بالميثاق ،وزاد بأن جعله كالشريعةِ وهي الدِّين ، وكلُّها ألفاظٌ تصبُّ في التدليلِ على شدَّةِ الوفاء ، والقيام بواجبه .

ثمَّ عاد ابن حمديس بعد ذلك فوصفَ الطلل وقال[1] :

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٢ .

فمن دمنةٍ[1] تحتَ القطوبِ[2] كمينةٍ[3] بـهـا وثلاثٍ راكـداتٍ[4] سـوافعَا[5]
ومـن خـطّ رمـسٍ[6] دارسٍ فكأنمـا أمـرَّ البلـى محـواً عليهـا الأصـابعَا

وابن حمديس في الأبيات الأولى أجملَ النظرة إلى الرَّبع ، فذكر الوحش ، وتعطيله المكان من الدُّمى ، وهو هنا يفصِّل في جزئيات الطلل ، ويوغلُ في ألفاظِ البداوة فيذكرُ الدِّمن ، والقطب ، والكمون ، والأثافيّ ، والدروس ، والرَّمس ، والأثر ، وينسجها بدويًّا ، فهذه الدُّمن ، وهي ما ترك النَّاس من آثارٍ (كمينةٌ) أي مستخفيةٌ غير ظاهرة ، وأراد بهذا اللفظ طولَ الزمن الذي مرَّ على هذه الديار الخالية حتّى أن الغبار وعواملَ الطبيعةِ غمرت الدّمن ، فكمنت ، ولم تظهر إلاَّ لمدقّق النَّظر ، كما ذكر في هذا النسج أنَّ الأثر يشبه في دروسه ، وكمونِهِ تحت التراب الخطّ الذي مُحيَ بالأصابعِ وبقي أثره ، وصورة الكتابةِ الممحوّة في سياقِ وصف الطلل كثيرة في الشعر الجاهلي ، ومنها قول امرئ القيس[7] :

أتتْ حججٌ بعـدي عليهـا فأصـبحت كخـطّ زبـورٍ في مصـاحفِ رهبـانِ

---

(١) دمنة الدار : أثرها ، والدمنة آثار الناس ، وما سوّدوا من آثار البعير ، وغيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (دمن) .

(٢) القطوب : القطب القائم الذي تدور عليه الرَّحى ، والقطب ضرب من الشوك ، انظر : اللِّسان ، مادة (قطب) .

(٣) كمينةٍ : مستخفية ، انظر : اللِّسان ، مادة (كمن) .

(٤) راكدات : ساكناتٍ ، ثابتاتٍ ، والرواكد الأثافي ، انظر : اللِّسان ، مادة (ركد).

(٥) سوافعا : السفع السواد والشحوب ، ومنه قيل للأثافي سفع ، وهي التي أوقد بينها النار فسوّدت ، صفاحُها التي تلي النار ، قال زهير :

أثافيّ سفعاً في معرّس مرجل .

انظر : اللِّسان ، مادة (سفع) .

(٦) الرمس : كل ما هيل عليه التراب ، والرمس التراب ترمس به الريح الأثر فتعفيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (رمس) .

(٧) ديوان امرئ القيس ، ص١٥٩ .

وقد جاءَ ابن حمديس من خلال الصياغةِ البدويَّة ، بدلالاتِ العفاء والانمحاءِ والقدم ، كما فعل الشعراء الجاهليُّون ، ثمَّ أردف ذلك بقوله[1] :

تــأوَّهَ منـــهُ شـــيِّقُ الرَّكـــبِ نائحـــاً ... فطرَّبَ[2] فيه ملغطُ[3] الطـــيرِ ســـاجعَا

وما زلتُ أُجري الدمعَ من حُرَقِ الأســـى ... وأدعو هوى الأحبابِ لو كـــان ســـامعَا

وأفحصُ[4] عن آثارهم تُـــربَ أرضـــهمْ ... كـــأنيَ قـــد أودعـــتُ فيهـــا ودائعَـــا

كأنَّ حصـــاة القلـــبِ كانـــت زجاجـــةً ... مقارعةً[5] من لاعجِ الشوقِ صـــادعَا[6]

وابن حمديس بعدما ذكر الآثار ، وفصَّل في جزئيات الطلل ، جعل الأسى الذي يشعرُ به عامًّا شاملاً ، لأنه أراد حزناً عظيماً ، لم يُبْكِهِ وحده ، فذكر أن الرَّكب بكى وأظهر الحزن ، وناح شوقاً ، ورجَّع الطيرُ في الطَّلل الصَّوت ، ومدَّه مسجعاً ، وهي ألفاظٌ دلَّ بصورتها وصوتها على شدَّة الوجد والأسى في قوله (تأوَّه) و (نائحاً) و (ساجعاً) كما أن (نوح الرَّكب) يحضرُ بالخيالِ صورة النساء النائحات المجتمعات لذلك ، لأن النوح اسمٌ يقع عليهنّ[7] ، وهي دلالةٌ أُخرى على شدَّةِ التوجُّع ؛ لأنَّ النساءَ أظهرُ للحزن بالنَّوح ، وزاد بأن جاء بلفظ (اللَّغط) ، وهو ما دل به على أصواتٍ مبهمةٍ مختلطةٍ وضجّة ، فأضاف إلى النَّوح مشهداً لشكلٍ جماعيّ ارتفع فيه صوتُ الحزن ، الدال على وقع الفقد ، ولذلك جاء بعده بقوله (ما زلت أُجري الدمع) أي أنني كنت ملازماً للبكاءِ وإجراء الدمع ، لما أحسَّه من تلهُّب الحزن ، وحرارتِه وجاء بخبرٍ آخر ذكر فيه

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٢ .

(٢) طرَّب : الطرب خفة تعتري عند شدّة الفرح أو الحزن أو الهمَّ ، وطرَّب تغني ورجع الصوت ، انظر : اللِّسان ، مادة (طرب).

(٣) ملغط : اللغط الأصوات المبهمة والكلام الذي لا يبين ، انظر : اللِّسان ، مادة (لغط) .

(٤) الفحص : شدّة الطلب خلال كل شيء ، انظر : اللِّسان ، مادة (فحص) .

(٥) مقارعةً : مضاربةً ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرع) .

(٦) صادعاً : الصدع الشق في الشيء الصلب ، كالزجاجةِ والحائط ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدع) .

(٧) انظر : اللِّسان ، مادة (نوح) .

أنه يدعو هوى أحبابٍ لا يسمعُه ، وهو مشابهٌ لخطاب الطلل ، وسؤالِه ، وذكر في خبرٍ آخر في البيت التالي أنَّه (يفحص عن آثارهم تربَ أرضهم) ، والفحص : شدَّة الطلب خلال الشيء ، وهو مناسبٌ لقوله السابق إنَّ (الدمن كمينة) أي غير ظاهرة ، ولذلك احتاج للفحص ليتبيَّن هذا الأثر ، وهو في هذا شابَهَ قول أبي الطيب[1] :

بليتُ بلى الأطلالِ إن لم أقف بـــهـــا وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُربِ خاتـــمـــهُ

والمتنبي ((إنَّما أراد وقوفاً خارجاً عن المتعارف))[2] وقد عاب النقاد هذا القول على المتنبي وعدُّوه من أغاليطه[3].

ولذلك تلافى ابن حمديس ذكر البخيل لـدلالـة الـوقـوف الطـويـل ـ وهـو ما عابه النقاد على المتنبي ـ واستبدله بمضيّع الوديعة ، الحريص أيضاً على إيجادها ، وهي دلالةٌ أُخرى على طولِ الوقوف ، وبيَّن حالة الوجد الظاهر في تفحُّص الأثر بقوله[4] :

كأن حصـــاةَ القلـــبِ كانـــت زجاجـــةً مقارعةً مـــن لاعـــج الشـــوقِ صـــادعَا

فأخبر عن القلبِ أنه حصاةً ، ليدل بالتالي على شدَّة الشوق ولواعجه وحرقته ، التي مزَّقته وفرَّقته كزجاجةٍ ، قُرعت وضربت فتفرَّقت قطعاً .

ثم قال بعد ذلك[5] :

أمـــاتَ ربـــوعَ الـــدَّارِ فقـــدانُ أهلـــها فأبصـــرتُ منـــها الأهـــلاتِ بلاقعَـــا[6]

---

(١) ديوان المتنبي ، ٤/٤٦ .

(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١/٢٩٥ .

(٣) (قالوا : أراد التناهي في إطالةِ الوقوفِ فبالغ في تقصيره ، وكم عسى هذا الشحيح بالغاً ما بلغَ من الشحّ ، وواقعاً حيث وقع من البخلِ أن يقف على طلب خاتمه ، والخاتم أيضاً ليس يخفى في الترب إذا طلب ، ولا يعسر وجوده إذا فتش ...)).
الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي الجرجاني ، ص٤٧١ .

(٤،٥) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٣ .

(٦) بلاقعا : خالية قفر لا شيء فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلقع) .

كأنَّ حُداءَ العيسِ في السَّيرِ نعيُها[1] وقد سُقيت سمًّا من البينِ ناقعَا[2]
أدار البلى ولّى الصِّبا عنكِ لاهياً فمن لي بأن ألقى الصِّبا فيكِ راجعَا
أما ولبان[3] درَّ لي أسحمٌ به ومن كان من أهلي بودِّي مُراضَعا
لقد دخلت بي منك في الحزن لوعةٌ حرمتُ بها من ذمَّة الصبر راجعَا
أيا هذهِ إن العُلى لتهزُّ بي حساماً على صَرْفِ الحوادثِ قاطعَا
ذريني أكنْ للعزمِ واللَّيلِ والسُّرى وللحربِ والبيداءِ والنجمِ سابعَا

وابن حمديس يقرِّر هنا من خلال الأسلوبِ الخبري حقيقةً من حقائق الحياة ، وهي أن الدار تعمر بأهلها ، وتقفر بخلوِّهم منها ، حتّى ما كان منها شاخصاً ، فإنَّ خلاءه من أهلِهِ يجعله بلقعاً خالياً ، ولذلك جاء بعد هذا البيت الذي قرَّر فيه هذه الحقيقة المؤكَّدة ، بما دلَّ به على موت الدّار وفنائها للسبب الذي ذكره ، فجعل صوت حُداء العيس نعيُها أي خبرُ موتها ، كما جعل بينَ أصحابها وفراقهم لها سمًّا ناقعاً بالغاً قتَلَها ، وجاء بذلك من خلال أساليبَ خبريَّة مؤكَّدة ، طابق فيها بين الأهلِ والبلقع ، وناسب بين الموتِ والنعي ، والسمِّ الناقع ، ثمَّ التفت في الحديثِ عن الديار ، من الغيبةِ إلى الخطاب ، وهو التفاتٌ بالنفس من الحديث عنها ـ وهي كما قال خاليةٌ ميتةٌ منعيَّةٌ ـ إلى الحديث إليها ، لأنها كما سيتبيَّن حاضرةٌ في القلب آهلةٌ حيَّة قريبةٌ منه جداً بالذكرى ، دل على هذا القرب نداؤه لها بالهمزة ، فقال (أدار) وأضاف لها البلى ، بما دلَّ به على وعيه التام بأنها خاليةٌ ، لا تردُّ ، ثم أخبر عن أيامه بها ، وربط كغيره من الشعراء الجاهليين وسواهم ، الطلل بالمشيب وتولّي أيَّام الصِّبا واللهو ، من مثلِ قول النابغةِ الذبياني[4] :

---

(١) النعي : خبر الموت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نَعَا) .
(٢) ناقعا : السم الناقع البالغ القاتل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقع) .
(٣) اللبان : الرضاع ، انظر : اللِّسان ، مادة (لبن) .
(٤) ديوان النابغة ، ص١٨٤ .

دَعاكَ الـهـوى واستجهلتكَ المنـازلُ وكيف تصابي المـرءِ والشـيبُ شـاملُ
وقفتُ بربعِ الـدارِ قـد غيَّـر البلـى معارفَهـا والسـاريات الـهـواطلُ

لأن الوقوف بالديار قديماً ، كان يحدث بعد زمن طويلٍ قضاهُ الشاعرُ بعيداً عنها ، وقد تمضي سنون قبل أن يعرِّج عليها ، قال زهير :

(وقفتُ بـها من بعـد عشربـن حجّةً)[1]

وفي خلال هذه السنين يكون الشاعر كبر وشاب ، وولّت أيَّام صباه التي كانت له بها ، ومن هنا ارتبط وقوفُ الشعراءِ على الطللِ قديماً ، بذكر الشيب ، وتولّي الصِّبا واللَّهو ، وكان استحضارُ بكاء الشباب ملازماً ـ في الغالب ـ لسياقِ الطلل ، في كثيرٍ من الشعر البدويّ في العصور المختلفة ، ومنـه الشعر الأندلسيّ ، لأنَّ المكان القديم ، وخلوّه ، ومشاهد الـدمـن والآثار البدويَّة البسيطة ، واستحضارها من خلال الخيال الشعري ، يثري هذا الشعر بدويًّا في سياقِ الذكريات والشباب ، بالألفاظ الموحيةِ الدالة على ذهاب العمر ، وتقضّي الأيام وانصرامها ، ولذلك قال ابن حمديس مخبراً :

(ولّى الصبا عنكِ لاهيا)

كما قال متمنياً : (فمن لي بأن ألقى الصِّبا فيك راجعا) ؛ لأن حضور الحالِ القاتمةِ ، تزيدُ في التعلُّق بالزمن القديم المشرق ، ثم قال (أما) وهي كلمة معناها الاستفتاح ، وهي بمنزلة (ألا) ومعناها (حقًّا) وقد جاءت تأكيداً لليمين في قوله : (لقد دخلت بي) وذكر بعد (أما) ما أدَّى به للقسم ، وهـو ذكرى أهله ، الذين كان له منهم أخوَّةُ رضاعٍ باللبن ، وأخوة ودٍّ ومحبّة ، وقد نظر في هذا البيت لقول الأعشى في المحلَّقِ والكرم[2] :

رضـيعي لبـانِ ثـدي أمٍّ تحالفَـا بأسـحمَ[3] داجٍ عـوضُ لا تتفـرَّقُ

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص٣٥.

(٢) ديوان الأعشى ، ص٢٣٦.

(٣) الأسحم : سواد حلمة الثدي ، انظر : اللِّسان ، مادة (سحم).

فقال ابن حمديس (أما ولبانٍ درَّ لي أسحم به) فجاء باللفظ البدوي عند الأعشى الذي ذكره في سياقٍ استعاريّ ، فذكره ابن حمديس في سياقٍ آخر ، وهو وجود أخوةٍ له بالرضاع أو بالمودَّةِ في هذا المكان الذي وقف عليه ، وأراد بذلك الدلالة القويَّة على شدَّةِ الارتباطِ بالديار والتعلُّق بها ، والإحساسِ بحالةِ الحزن والوجد ، لفقدها ، أو فقد أهلها ، لأنَّ الرَّضاع الذي يُربَّى به الطفلُ ينمّي علاقة صلةٍ قويَّةٍ لا تنفصم عراها ، لأنَّها صلة قُربى ورحم ، وهو ما أراده بالربط بينه والدار وأهلها ، في جعله هذا الرابط نسباً ، وصلةً قويَّةً عميقة ، ولذلك أقسَم مؤكِّداً بقد ، أنه قد دخلت به منها لوعةٌ ، واللَّوعة وجعُ القلب من الحب والحزن وحرقتُه ، هذه اللوعةُ حرَمتهُ من ذمته وعهده مع الصبر ، وجاء بحروف الجر الدالة على عمق هذا الحزن (بي)، (منك)، (في).

ثم قال (أيا هذه إن العلى لتهزُّ بي) ، فخاطب الصاحبة ، وفي ذلك انصرافٌ من خلال الأسلوبِ والصياغة عن الحزن والتذكر والتوجُّع والأسى ، وهي طريقة بدويَّة درج من خلالها الشعراءُ في أساليبهم ، على البعدِ عن علائقِ الذكرياتِ ومثبطاتِ العزم من أحزان ، إلى العودة عن الماضي إلى المستقبل ، والأخذ بأسباب الحياة ، وهي دلالاتٌ تكثر في قولهم (عدَّ عن ذا) أو (سلَّ الهمّ) فينصرفون إلى الحديثِ عن ناقةٍ قويَّةٍ جسرة ، تحمل معاني العزم والمضاء ، وقد كانت القصيدةُ الجاهليَّةُ تدخل بعد ذلك في أغراضَ أخرى ، أما عند ابن حمديس فقد توقَّف بها عند دلالاتِ وجودِ الناقة دون أن يذكرها في قوله[1] :

ذريني أكنْ للعــزمِ واللَّيــلِ والسُّــرى وللحــربِ والبيــداءِ والــنجمِ ســابقَا

فجاء بألفاظ : العزم ، والليل ، والسُّرى ، والبيداء ، والحرب ، والنجم ، وهي تحمل وراءها معاني الارتحال ، وما دلَّ عليه من الأخذ بالأسباب من خلال الضرب في المجهول ، والتطلُّع للقادم من الأيام ، والقدرة على تخطي الصعاب وتجاوز الماضي بآلامه .

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣١٣ .

والقصيدة بدويَّة الأسلوب ، ذكر فيها الطلل الخالي من أهله ، وتفاصيله الصغيرةِ ، من الدِّمن ، والقطب والأثافي ، والوقوف عليها ، والبكاء والنوح ، وتصدُّع القلب لاسترجاع أيام الصِّبا واللَّهو ، وتذكر الأهل ، وجاء بها من خلال صياغةٍ بدويَّة ، ذكر فيها المراتع التي كانت للنساء ، وأصبحت للوحش ، والآثار التي تشبه خطوط الكتابة ، وهي كليلةٌ ضعيفةٌ تحتاجُ وقوفاً طويلاً لتبيُّنِهَا ، وجمع إلى ذلك حالة الثَّكلِ للفقد في ألفاظِ البكاء ، والنوح ، الذي تجاوب فيه الطَّيرُ مع الرَّكب ، والنعي ، واللوعة والحزن ، واللواعج والشوق ، والجزع ، ودلَّ على شيمة الوفاء من خلال وقوفه على الطلل البدويّ ، وحفظه للعهود والمواثيق ، وجاء بهذه القصيدةِ في نسيجٍ بدويٍّ لطلل آفل ، لأنه أراد الدلالات الموحية بذهاب العمر ، وتقضّي الأيام ، وفقد الأهل والأحباب ، من خلال عناصر الطلل ، وتفاصيله ، وألفاظه ، وصيغه ، كما جاء بما دلَّ عليه وجود الناقة ـ غالباً ـ في القصيدة الجاهليَّة ، وذلك في الألفاظ التي تحمل معاني العزم والمضاء .

وفي مثل هذه القصيدة السابقة يقول ابن حمديس ، في سياقِ وصف الطلل أيضاً[(١)] :

أيا جزعي بالدَّارِ إذ عنَّ[(٢)] لي الجــزعُ[(٣)] وقاد حِمامي[(٤)] مــن حمائمــه الســجعُ

وعــاودني فيــه رِداعــي[(٥)] ولم أشــمْ ترائبَ[(٦)] عُوَّادٍ يضمّخُها[(٧)] الــرَّدعُ[(٨)]

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠٧ .

(٢) عنَّ : عنَّ الشيء ظهر أمامك ، انظر : اللِّسان ، مادة (عنن) .

(٣) الجزع : منعطف الوادي ، انظر : اللِّسان ، مادة (جزع) .

(٤) حمامي : الحمام قضاء الموت وقدره ، انظر : اللِّسان ، مادة (حمم) .

(٥) رداعي : الرداع النكس في المرض ، والوجع في الجسد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ردع).

(٦) الترائب : موضع القلادة من الصدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (ترب) .

(٧) يضمّخها : يلطخها ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضمخ) .

(٨) الردع : أثر الخلوقِ والطيب في الجسد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ردع) .

وقفتُ بـهـا والنفسُ من كـلِّ مقلـةٍ تذوبُ بنارٍ في الضلوعِ لـهـا لـذعُ
مُطـلاً مطيـلَ النَّـوحِ لـو أنَّ دمنـةً لـهـا بصرٌ تحتَ الحـوادثِ أو سمـعُ

فنادى جزعه بقوله (أيا) وأراد بحرف النداء تشخيص هذا الجزع لتعظيم شدَّتِهِ ، وقوَّة المشهدِ على نفسه ، لأنه ذكر بعد ذلك (إذ) وهي ظرفية أراد بها الزمن الذي رأى فيه ، وعنَّ له أي ظهر أمامه (الجزع) ، وهو منعطف الوادي ، وسمع سجع الحمام بجنباتِهِ ، الأمر الذي أدَّى به على الهلاك ، أو قاد إليه الموت ، وقال (عاودني فيه رداعي) أي انتابني (فيه) و (في) دالَّة علي الظرف ، وهـو الـمـكـان الذي وقـف عليـه ، والرداع : النكسُ فـي الـوجـع ، قال قيس ابن ذُريح[1] :

فيـا حزنـاً وعـاودني رداعٌ وكـان فـراقُ لـبنى كالخـداع

وجانس ابن حمديس بين (عاودني وعواد) وبين (رداعي والردع) ، كما ناسب في الصياغةِ بين المرض المعاود وأراد به الهمَّ والألم ، والعواد الزائرين للمريض ، فقال إن هذا الوجع عاد إليه ، ولم تعده أو تزره النساءُ الجميلاتُ اللاتي يلطِّخن أجسادهن بالطِّيب ، وخصَّ الترائب لأنه موضع الرَّدع وهو أثرُ الخلوقِ ، والزعفران تضع المرأة منه على صدرها تلمِّعهُ[2] . وقال بعد ذلك إنه وقف عليها ، وجاء بواو الحال المبينةِ لما اعتراهُ في هذا الوقوف ، فذكر أن نفسه أحرقها هذا اللذع والوجع والألم الممضّ ، حتَّى خرج الدمع ناراً ذائبةً ، وذكر الذوبَ للدمع لأنه مناسبٌ للفظ النارِ وحرارتها ، ثم ذكر حالاً أُخرى له في الوقوفِ ، وهي قوله : (مطِّلاً مطيلَ النَّوح) أي وقفتُ بها أطلُّ عليها ، وأنظر (وهي حالٌ) وكنتُ فيها مطيلَ النوح والبكاء ، (وهي حالٌ أُخرى) ثمَّ قال (لو) ، وفيها تمنٍّ ، أي (ليتَ دمنةً تبصرُ وتسمع) ، و (تحت الحوادث) جملة اعتراضية أراد بها ما جرى ووقع فيها ، و (تحت) ظرف للمكان ، وهو مناسبٌ للدمن التي عفت وصارت (تحت) لِمَا مرَّ عليها من عوادي طبيعيةٍ دثرتها ،

(٢،١) انظر : اللِّسان ، مادة (ردع) .

وقوله (تحت) مناسبٌ أيضاً للفظ (مطِّلاً) الذي يعني الإشراف على الشيء من فوق المكان ، وفيه بيان حالة الوقوف التي كان فيها على ناقته ، ثمَّ قال[1]:

طلـــولٌ عفـــت آياتُهـــا فكأنَّمـــا غرابيبُها[2] جِزْعٌ[3] وأُدْمَانُهَـــا[4] وَدْعُ[5]

حكى الربعُ منـــها بالصَّـــدى إذ ســـألتُه كلامي حتّى قيلَ هل يـــمـــزحُ الرَّبـــعُ

تخطُّ مع المحلِ[6] الجنوبُ[7] بـــمـــحوها سطورَ البلى فيهـــا وتعجبـــها المِسْـــعُ[8]

ولم يبـــق إلاَّ ملعـــبٌ يبعـــث الأســـى ويدعو الفتى منه إلى الشوقِ مـــا يـــدعو

يقول محقق الديوان ، الدكتور إحسان عباس : ((والمعنى أن ليس في الدار بعد عفائها إلاَّ الغربان والظباء ، فالغربان سودٌ كالجزع ، والظباء بيضٌ كالودع))[9]، والبيتُ يحتمل معنًى آخر ، وهو أن يكون أراد بالغرابيب السود ، الأثافي فالغربيبُ : الشديد السواد ، وحجارة الأثافي سود ، والجزع خرزٌ منه أسود اللون ، وأراد أن حجارة الأثافي أصبحت تشبه لقدمها الخرز الأسود ، وهو مناسبٌ أيضاً لقوله (تحتَ الحوادث) ، والأدم ظاهر الأرض ووجهها ، والودع خرزٌ أبيض ، فالأرض كانت صحراءَ فيها بياضُ الرمل كالودع ، وحجارة الأثافي فيها سوداء كالجزع ، فناسب بين الودع والجزع ، ودلَّ بهذه

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠٧ .

(٢) غرابيبها : جمع غربيب ، وهو شدَّة السواد ، انظر : اللِّسان مادة (غرب) .

(٣) الجزع : ضربٌ من الخرز اليماني فيه بياض وسواد تشبه به الأعين ، انظر : اللِّسان ، مادة (جزع) .

(٤) أدمانها : أديم كل شيء ظاهر جلده ، وأدمة الأرضِ وجهها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أدم) .

(٥) الودع : خرزٌ أبيض جوف في بطونها شق كشق النواة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ودع).

(٦) المحل : الشدة والجدب وانقطاع المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (محل) .

(٧) الجنوب : من الرياح ما استقبلك عن شمالك ، والجنوبُ من الرياح حارَّة إلاَّ بنجد ، فإنها باردة ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنب) .

(٨) المسع : ريح الشمال ، انظر : اللِّسان ، مادة (مسع) .

(٩) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠٧ ، الهامش .

الصورة والصياغة على التقادم ، وجاء بعد ذلك في الأسلوبِ بذكر السؤال ، والإجابة ، وهو ما يكثر في سياقات وصف الطلل ، دلَّ بهما الشاعر هنا على أن ما يشاهده من آثار العفاء ، كلامٌ تحدَّثُ به الديار عن نفسها فقال : (إن الربع حكى كلامه إذ سأله) ، و (إذ) ظرفٌ للزمن الماضي ، وأراد أن كلامه ردَّده الصَّدى ، فأخبر عن الطلل ، وأجابه حتَّى قيل : (هل يمزح الرَّبعُ) أي (حتَّى ظُنَّ أنه يداعبني ويمازحني بترديده الكلام).

ثمَّ عاد ليصفَ الطَّلل الذي ذكر ما بقيَ منه وهو الدِّمن ، فقال (إنَّ الجدبَ ، ورياحَ الجنوبِ والشِّمال ، تمحوها) وكلُّها عناصر طبيعيَّة ، دلَّتْ على الكمون والاندثار الذي أجمله بقوله سابقاً ـ تحت الحوادث ـ وقوله تعجبها أي تدقُّها[1]، ثمَّ ذكر ما بقي منها في أسلوب الاستثناء فقال (لم يبق إلاَّ ملعبٌ يبعثُ الأسى) والملعب من ديارات العرب حيث يلعبون[2] ، وخصَّه لأن فيه ذكريات اللَّهو والصَّبا ، وهو أدعى للشوق ، ولذلك قال في القصيدة[3]:

ليالِيَ عودي يكتسي ورق الصِّبا وإذ أنا إلفٌ للجآذر لا سِمْعُ

و (ليالِيَ) ظرف زمان أراد به تلك الأيَّام التي كان الصِّبا فيها مونقاً زاهياً ، وكانت النساء أشباه الظِّباء حوله ، يألفنَه ولا ينفرنَ منه نفورهنَّ من وحشٍ ، كحال النِّساء مع الكبير ، وذكر (إذ) الظرفيَّة ، وأراد بها الزمن الماضي ، الذي كانت فيه ليالي الصِّبا ، وحدَّث عنه بأسلوب خبريّ ليثبت هذا الخبر ويؤكدُه ، وهو أنه كان إلفاً للنساء .

ومن هنا فإنه . . . قد تكون الأثافي التي ذكرها مقابلة للعمرِ وما بقي من الأيام ، وتعاور الرياحِ والمحلِ على المكان تعاور الأيام في هذا العمر وتقضِّيها ، وقد يكون الغرابُ الأسودُ نعى عمراً عافياً لا طللاً داثراً ، فجاء

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (عجب) .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (لعب) .

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠٨ .

ابن حمديس بالطلل لأنه أراد الحديث عن شيبه وكبره ، فنسج هذا الحديث بدويًّا من خلال الألفاظ والصياغةِ البدويَّةِ ، الدالة الموحية بذلك .

وفي مثل هذا النسيج السابق للطلل ذي الدلالات الموحية ، يقول لسان الدين ابن الخطيب[1] :

نشدتكُما بالله ، هل تبصرانها ... معالمَ محَّتها الغمائمُ من بَعْدي؟!
عفتْ غيرَ سُفْعٍ كالحمامِ جواثمٍ ... وغيرَ جدارٍ مثل حاشيةِ البُردِ[2]
وموقدِ نارٍ يستطيرُ[3] رمادُه ... ونؤيٍ[4] كما دارَ السُّوار على الزَّندِ[5]
وغيرِ ظباءٍ في رُباها كوانسٍ ... تفيَّأنَ[6] في أفيائها دوحةَ[7] الرَّندِ[8]

قد تضافرت في هذا النسيج الصياغة ، والألفاظُ البدويَّة ، التي تأتي في معظم سياقاتِ وصفِ الطلل ، فالشاعر خاطب صاحبين ، وناشدهما وقال (بالله) أي أنه طلب إليهما ، وأقسم عليهما بالله تعالى ، وسألهما إن كان ما يبصرانِهِ معالم الديار العافية؟! فجاء بطلبٍ ، وقسمٍ ، وسؤالٍ عن الديار ، وفي ذلك دلالات عفاءٍ وتقادم ، حتَّى أن الديار لم تتبيَّن ، واحتاج الشاعر في الوقوف عليها إلى من يرى ويبصر معه ، فعلَ الغمام ، وأراد المطر ، وما أحدثه من عفاء ، ثمَّ أردف هذا الأسلوب الإنشائي بأساليب خبريَّة ، ذكر فيها أنها عفت ، واستثنى

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٠١/١

(٢) حاشية البرد : أطرافه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حشا).

(٣) يستطير : يتفرَّق ، ويذهب ، انظر : اللِّسان ، مادة (طير).

(٤) النؤي : الحفير حول الخباء ، أو الخيمة يدفع عنها السَّيل يميناً ، وشمالاً ، ويبعده ، انظر : اللِّسان ، مادة (نأي).

(٥) الزند : عظم الساعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (زند).

(٦) تفيَّأن : تظللن ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيأ).

(٧) الدوحة : الشجرة العظيمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (دوح).

(٨) الرند : شجر من أشجار البادية طيب يُستاك به ، انظر : اللِّسان ، مادة (رند).

الأثافي السود ، المقيمةِ الجاثمة ، وشبهها بالحمام ، وهو تشبيه قديمٌ في الشعر ، واستثنى أيضاً بقيَّة الحائط الذي أصبح كأطرافِ ثوبٍ ممزَّق ، وعطف عليها موقد النَّار الذي يتفرَّقُ رمادُه بفعل هبوبِ الرياح ، والحفير حول الخباء الذي يمنع عنها السَّيل ، وشبهه في استدارتِهِ بالسِّوار ، ثم ذكر الظباء التي ترتع في المكان وتلعب وتتظلّل بالرَّند من أشجار البادية ، وإنما أراد طول الزمن في العفاء حتَّى ألفَه الوحش ، ورتع فيه ولعب .

وفي القصيدة[1] :

سنسألُ عن سُكَّانِها نَفَسَ الصَّبَا ... لعلَّ نسيم الريح يخبر عن هندِ

إذ العيشُ غضٌّ والشبيبةُ وارفٌ ... جناها وشملُ الحيِّ منتظمُ العقدِ

مفارقُ ما راعَ البياضُ سوادَها ... وأفئدةٌ لم تدرِ ما ألمُ الصدِّ

ووصلٍ كأنَّا منهُ في سنةِ الكرى ... وعيشٍ كأنَّا منهُ في جنَّةِ الخلدِ

مرابعُ ألأَفي وعهدُ أحبَّتي ... سقى الله ذاك العهدَ منسكب العهدِ

قال سنسأل ، ثم ذكر من سيسأل ، وعمَّن سيكون السؤال ، فهو استفهام عن سكَّان الديَّار التي وقف بها ، وعن محبوبةٍ اختار لهم اسم (هند) البدويّ ، أمَّا المسؤول فهو نَفَسُ الصَّبا ، وقال (لعلَّ) ، وهو ترجٍّ وتمنٍّ لأنه يعلم أن النسيم لا يخبر ويحدِّث ، ولكنه بعد السؤال الذي دلَّ به على فعلٍ مستقبل (سنسأل) ، عاد إلى الماضي وارتدَّ الزمن عنده للذكريات في البيت التالي فقال (إذ) وهي ظرفٌ للزمن الماضي ، وكأنه أراد أن يخبره النسيمُ أو تحدِّثه الذكرياتُ عن أيَّام الصِّبا واللهو والصبوات ، بطريقةِ صياغةٍ ارتفع فيها رنينُ الحنين فذكر العيشَ الغضَّ ، ونضارته ، واجتماعَ الشَّمل المرتبطَ بتلك الأيَّام ، وما فيها من لهوٍ وصبواتٍ ، وذكر الوصلَ ونعيمَ العيش اللَّذين جعلهما من حلاوتهما كأنهما

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١/٣٠٢ .

كانا في جنَّةِ الخلدِ أو في المنام ، وفي ذلك دلالات المبالغة في صفةِ النعيمِ في تلك الأيام ، حتَّى ظُنَّ أنَّها حياةٌ مُتخيَّلة ، ثمَّ قال (مرابعُ ألأَفِي) ، والمبتدأ محذوف ، وكأنَّه بعد أن وصفَ أيَّامَ الصِّبا واللَّهو ، استأنفَ كلاماً جديداً ، يُبيِّن سببَ توهُّم أن العيشَ فيها حلم ، أو في جنَّةِ خلد ، وهو أن هذا المكان مرابعُ آلافه ، وعهدُ أحبَّتِهِ ، ولذلك جاء بالدُّعاء بالسُّقيا ، والعهد الأولى (المنزل المعهود به الشيء)[1]، والعهد الثانية (المطر بعد المطر)[2].

وذِكْرُ الشباب ، والصِّبا ، وأيَّام الوصل ، في سياق وصف الطلل كثيرٌ في الشعر القديم ، لأن الوقوف على الطلل في القصيدة ، يستحضر في السِّياق أيام الشباب والصبوة ، وتوليِّها ، كما أنَّ ذكر أيام الشباب الذاهبة يستحضر أيضاً صورة الطلل العافي المشبه للشيخوخة الحاضرة ، والنسيجُ البدوي الذي ذكر فيه الشاعر الأثافيَّ ، والنؤي ، والعفاءَ ، ملائم في الصياغةِ لحالةٍ من الشيب الرَّاهن ناسبت في قتامتها الطلل المحيل .

وقد خرج ابن الخطيب في القصيدة بعد ذلك من وصف الطلل والشيب إلى الرحلة والمدح وهو حذو بناءٍ جاهليّ في القصيدة ، يخرجُ به الشاعر من حديث النفس إلى الحديث عن الغير ، وفيها يقول[3]:

أقولُ لركبٍ ينتحي[4] طُـرَقَ السُّـرى ويخبطُ[5] في جُنحٍ[6] من اللَّيلِ مربـدِّ[7]

(١،٢) انظر : اللِّسان ، مادة (عهد).

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٠٢/١.

(٤) ينتحي : يقصدُ ويؤم ، انظر : اللِّسان ، مادة (نحا).

(٥) يخبط : يضرب الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (خبط).

(٦) جنح الليل : جانباه ، وقيل أوله ، وقيل قطعة منه نحو النصف ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنح) .

(٧) مربدّ : الربدة ، لون الرماد ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٣١٤/١.

تـــهادَى[1] مطاياهُ التهائمُ[2] والـــرُّبى[3] ويرمي به غَـــورُ[4] الفـــلاةِ إلى نجـــدِ[5]
وقد أخلفَ الغيثُ الســـكوبُ ديارَهـــا وأفضى بـــهـــا هزلُ الســـنين إلى جـــدِّ
ولم يُبقِ منه الأزلُ[6] غـــيرَ حشاشـــةٍ[7] تنازعها الـــلأواءُ[8] في العظـــمِ والجلـــدِ
أريحوا فقـــد يمَّـــتهمُ حضـــرةَ النـــدى وأوردتـــمُ في مورد الرفـــقِ والرفـــدِ[9]

بدأ ابن الخطيب وصف الرحلةِ بخطاب الرَّكب ، وبدأ بـ (أقول لركبٍ) وفصل بين الفعل ومقول القول بعدَّةِ أبياتٍ وصف فيها هذا الرَّكب ، فذكر أنه يسيرُ في الليل تحت جنح الظلام المغبرّ سواده ، وأنه (تهادى مطاياه التهائم والرُّبى) أي تتلقاه المنخفضات والمرتفعات ، وطابق بين (التهائم والربى) و(الغور والنجد) وذكر السُّرى ، والسير ، في أفعالٍ مضارعةٍ لأنه أراد حالاً مستمرَّة كان عليها الرَّكب ، ثم جاء بخبرٍ مؤكّدٍ بقد دلَّ به على شدَّة السنين التي أخلفت الركب على ديارهم ، وأفضتْ بها إلى المحلِ واللأواء ، وهي بقيَّةُ النفسِ في الجسد ، وأراد بذلك أن يدلَّ على الرَّغبةِ الشديدة فيما عند الممدوح ، بأسلوبٍ عمد فيه إلى التبدِّي في إظهار شدَّة الحاجة إلى الرفد والعطاء ، ثمَّ جاء بمقولِ القول وهو : (أريحوا فقد يمَّمتم) وهو أسلوب طلبٍ جعل فيه الممدوح مكان الندى والكرم وإقامته وورده ، وفي هذا الأسلوب دلالة اليقين بما عنده ،

---

(١) التهادي : مشي الإبل الثقال في تمايل وسكون ، والتهادي أن يهدي بعضهم إلى بعض ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدي) .

(٢) التهائم : التهمة الأرض المنصوبة إلى البحر ، انظر : اللِّسان ، مادة (تهم).

(٣) الربا : ما ارتفع من الأرض وربا ، انظر اللِّسان ، مادة (ربا) .

(٤) الغور : غورُ كل شيء قعره ، انظر : اللِّسان ، مادة (غور) .

(٥) النجد : ما ارتفع وأشرف من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجد) .

(٦) الأزل : شدَّة الزمان ، وضيق العيش ، انظر : اللِّسان ، مادة (أزل) .

(٧) الحشاشة : بقيَّة الروح ، انظر : اللِّسان ، مادة (حشش) .

(٨) اللأواء : الشدَّة وضيق المعيشة والمشقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (لأي) .

(٩) الرفد : العطاء والصلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (رفد) .

والتأكُّد من أن ما قاله في الشِّعر سيلقاه في الحقيقة ، وفيه استنفارٌ للشمائل العربيَّة في الممدوح ، ومخاطبةُ أريحيَّته .

ويكثر ترسُّم النسيج البدويّ في الشعر الأندلسيّ ، ومنه ما جاء في سياقِ وصف الطيف وزيارته ، من مثل قول ابن الزَّقَّاق[١] :

طرقت[٢] على علل[٣] الكرى أسماءُ ... وَهْناً[٤] وما شعرتْ بها الرُّقباءُ

سكرى ترنَّح عطفُها[٥] فتعلَّمتْ ... من معطفيها البانةُ[٦] الغنَّاءُ

يثني الصَّبَا والراحُ قامتها كما ... تثني الأراكةَ[٧] زعزعٌ[٨] نكباءُ[٩]

زارتْ على شحطٍ[١٠] المزارِ متيَّماً ... بالرَّقمتين ودارُها تيماءُ

في ليلةٍ كشفتْ ذوائبها بها ... فتضاعفتْ بعقاصِها[١١] الظلماءُ

قال ابن الزَّقَّاق (طرقت) ، وهو لفظ يأتي في سياق وصف الطيف ، لأن معناه الزيارةُ ليلاً ، ولا يأتي طيفٌ بحلمٍ إلاَّ ليلاً ، وجاء بما يناسبُ الطرق والليل ، فقال (على علل الكرى) ، وأفادت (على) الظرفية الزمانية ، ويعني

---

(١) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٦٤ .

(٢) طرقت : طرق القوم جاءهم ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (طرق).

(٣) علل : العل الشربة الثانية ، انظر : اللِّسان ، مادة (علل) .

(٤) وهناً : الوهن ساعة تمضي من الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (وهن).

(٥) عطفها : جوانبها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عطف) .

(٦) البانة : البان شجر يسمو ويطول في استواء ، مثل نباتِ الأثل ، وليس لخشبه صلابة ، وله هدب طوال شديد الخضرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدب) .

(٧) الأراكة : شجر معروف ، وهو شجر السواك يستاك بفروعه ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرك) .

(٨) زعزع : ريح شديدة تزعزع الأشياء وتحركها ، انظر : اللِّسان ، مادة (زعع).

(٩) النكباء : ريح تنسب إلى الصَّبا وهي تشبهها في اللين ، انظر : اللِّسان ، مادة (نكب).

(١٠) الشحط : البعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (شحط) .

(١١) بعقاصها : العقص ، أن تلوي الخصلة من الشعر ثم تعقدها ثم ترسلها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقص).

وقت النوم ، وقوله (علل) قد يكون أراد به نوماً متقطعاً ، لأن العلَّ المرَّة بعد المرَّة ، ثم ذكر ظرفاً آخر ، وهو (وهناً) أي ساعةٌ تمضي من الليل ، وجاء بجملة الحال وهي أنَّها (لم تشعر بها الرُّقباء) وأراد زيارة مستترةً غير مروَّعةٍ بوجود الرُّقباء .

وهذه الصياغة البدويَّة التي تأتي في سياقات وصف الطيف ، من ذكر الطرق ، والوقت ، والرُّقباء ، كثيرةٌ في الشعر القديم ، ومنه قول معاوية ابن مالك بن كلاب[1] :

طَرقتْ أمامةُ والمزارُ بعيدُ وَهْناً وأصحابُ الرِّحالِ هجودُ

ثم جاء ابن الزقاق بما وصف فيه حالة الطيف وهيأته : فهي (سكرى ترنَّحَ عطفُها) أي تتمايل تمايل السكران في مشيها ، وفضلها على شجر البان من أشجار البادية بقوله (تعلَّمت من معطفيها البانة) وجاء بوصفٍ آخر ، لتثني قامتها ، فشبَّهها بالأراكِ من شجرِ الباديةِ أيضاً ، وقد زعزعته وحرَّكته النكباء .

وتسَمى بالنكباء رياحٌ كثيرة ، ولكنه أراد هنا النكباءُ التي تُنْسبُ إلى الصَّبا ، وهي التي بينها وبين الشمال ، وهي تشبهها في اللِّين[2] ، ودل على أنه أراد هذه الريح ذِكرُهُ الصَّبا والخمر ، والصَّبا من ألطف الرياح وأرقّها لأنه أراد تمايلاً وتثنيًا سبَّبته ريحٌ ليِّنة ، ثمَّ بعد أن ذكر الظَّرف ، ووصفَ الهيئةَ جاء بمثل ما أتى به الشُّعراء الجاهليُّون ، وهو اهتداءُ الطيف للمكان ، من مثل قول جعفر ابن كلاب (والمزار بعيد) وقوله أيضاً[3] :

أنَّى اهتديتِ وكنتِ غيرَ رجيلةٍ والقومُ منهمُ نبَّةٌ ورقودُ

وأراد الشعراءُ بوصف بُعدِ المكان ووعورةِ الطريق ، ما وراء ذلك من دلالاتِ الشَّوق الذي يحضر هذا الخيال دون عائق ، وأنَّ المحبوبة قد تأتي ولو

---

(١) المفضليات ، الضبي ، ص٦٩٥ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (نكب) .

(٣) المفضليَّات ، الضبيِّ ، ص٦٩٥ .

في الوهم ، وتحضُر لا يحول بينها وبينه حائلٌ وعائقٌ ، ولعلَّ في ذلك انتصارٌ للمشاعر التي قد ضنَّت بها عليهم من يحبُّون ، فجادوا بها لأنفسهم في استحضارهم الطيف ، ولذلك ذكر ابن الزَّقَّاق أنها زارتُه ، وهو المتيَّم أي المستعبد في الهوى في الرَّقمتين[١] ، وهي في تيماء[٢] ، وجانس بين (متيَّم وتيماء) ، ثم عاد يذكر (الليل) ،وهو هنا يعيدُ ذكرَهُ لا ليدلَّ على وقتِ الزيارة كما فَعَلَ في أوَّل الأبيات ، وإنَّما ليدلَّ على الوصلِ الذي جادَ به الطيفُ فيه ، وجاءَ بوصفٍ لسوادِ اللَّيلِ عن طريق ذكره ملمحاً جماليًّا فيمن يحبُّ ، فهي سوداءُ الذوائب لمَّا كشَفَتها زادت من ظلام هذا اللَّيل وأراد أن يدل بذلك على شدَّة سواد شعرها ، وأرادَ أيضاً من قوله (كشَفَتْ) ما وراء اللَّفظ الذي يَشِي بالعطاءِ والجودِ ، لأنه فعلٌ قامت به ،فدلَّ بذلك على ما وراء الكلمة من إيحاءٍ بالوصلِ الذي أعطتهُ وجادت به هيَ ، ولذلك قال ابن الزَّقَّاق بعد ذلك[٣]:

مـــا زال يُمْـــتِعُني الخيـــالُ بوصـــلِهَا ... حتَّى انزوى عـــن مُقْلَـــتي الإغفـــاءُ[٤]

بردَ الحُـــليُّ فنافرتْ[٥] عَضُدي[٦] وقـــد ... هبَّ[٧] الصَّـــباحُ ونامَـــتْ الجـــوزاءُ[٨]

---

(١) الرقمتان : تثنية الرقمة وهو مجتمع الماء في الوادي ، وهـما قريتان بين البصرة والنباح ، وقيل : روضتان إحداهما قريبة من البصرة والأخرى بنجد ، وقيل إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة ، وقيل الرقمتان روضتان في بلاد بني العنبر ، وهما أيضاً موضع قرب المدينة ، انظر : معجم البلدان ، ٥٨/٣ .

(٢) تيماء : بالفتح ، والمد ، بليد في أطراف الشام ، على طريق حاج الشام ودمشق ، معجم البلدان ، ٦٧/٢ .

(٣) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٦٤ .

(٤) الإغفاءُ : غفا الرجلُ نام نومةً خفيفةً ، انظر : اللِّسان ، مادة (غفا).

(٥) نافرت : جزعت ففارقت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفر).

(٦) عضدي : ساعدي ، انظر : اللِّسان ، مادة (عضد).

(٧) هبَّ : هبَّ من نومه انتبه ، وهبَّ النائم استيقظ ، وهبَّ النجم ، طلع ، انظر : اللِّسان ، مادة (هبب).

(٨) الجوزاء : نجمٌ يقال إنه يعترض في جَوْز السماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوز).

ودَعَتْ برحلَتِهـا النَّـوى[1] فتحمَّلَـتْ في الرَّكـبِ منـها ظبيـةٌ أُدمـاءُ[2]

فقال (ما زال) وأراد به ملازمة الخيال له ، ودوامُ إمتاعه له بالوصل ، وقال (يمتعني) بالمضارعة لدلالةِ الاستمرار فيه ، ثمَّ جاء بـ (حتَّى) وهي حرف معناه انتهاء الغاية ، أي (أن الخيال ظلَّ يجودُ لي بالوصل ، حتَّى تنحَّى عن عيني الإغفاء) وهو النَّوم الخفيف ، وذِكْرُ النوم الخفيف مناسبٌ لذكره في أوَّل الأبيات نوماً متقطِّعاً في قوله (على علل الكرى) ، وكما جاء بما دلَّ به على وقت انتهائِهِ بعد (حتَّى) فقال (بردَ الحُلي) وهو وقت الفجر أو أوائل الصَّباح ، قبل طلوعِ الشمس حين يبرد النسيم فيؤثر في الحُلي ، ولذلك ذكرَ الفاء المفيدة للترتيب ، في قوله (نافرت عضدي) أي (فارقت ساعدي جازعةً) ، وهذا الفعل وهو (نافرت) يُشعرُ بأنَّه حدث بعد البرودة بوقت ، لأنَّه جاء بما يدلُّ على الحال التي أحدثت عندها هذا الفعل في جملة (وقد هبَّ الصباح ، ونامت الجوزاء) ، وقوله (هبَّ) يَشِي بفعلٍ سريع ، سبَّب النفور والجزع ، كما أنَّ قوله (هبَّ الصَّباح) فيه دلالةُ استعجال ، أراد أن يدلَّ به على سرعة انقضاء الوقت لأنه وقت وصال سعد بها فيه ، وذكر الجوزاء من النجوم ، لأنها مرتبطة بالليل ، وإذا غابت انقضى اللَّيل ، ثمَّ حدَّث عن ارتحال الطَّيفِ حديثَه عن ظعينةٍ حقيقةٍ فقال (ودَعَتْ برحلتها النَّوى) أي (أنَّها استدعت البعدَ برحيلها عنِّي) وكانت في الرَّكب المرتحلِ كالظبيةِ الأدماء .

والشاعر وصف الطيفَ في نسيجٍ بدويٍّ ، ترسَّم فيه خُطى الشعراء القدامى ، فذكر زيارته ، والمكان بعيدٌ ، والناس هجوعٌ والوقت ليلٌ ، فالشعراء تحبُّ الليل لأجلِ الزيارة ، وترغبُ النوم ليتسنَّى للطيفِ الإلمام ، ولذلك قال ابن سهل[3] :

---

(١) النَّوى : البعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوي) .

(٢) أُدماء : في الظباء لونٌ مشربُ بياضاً ، والأدماء من الظباء البيض . انظر : اللِّسان ، مادة (أدم) .

(٣) ديوان ابن سهل ، ص٢٣١ .

نفـــى ســـهري الخيـــالَ فهـــل رقـــادٌ يُعـــارُ لوصـــلِ طيفـــكِ أو يبـــاعُ

كما ذكر ابن الزَّقَّاق الجود بالوصلِ ، وتمتعه به ، كل ذلك من خلال نسيج وصياغة وألفاظ بدويَّة .

ومن هنا . . . نجدُ من الأمثلة السَّابقة ، أنَّ الشعراءَ الأندلسيين نسجوا على المنوال البدويّ في سياقاتٍ مختلفةٍ كثيرةٍ ، وكانت البداوة في هذا النسيج مترواحةً بين التبدِّي الذي قد يعمد فيه الشاعرُ عمداً إلى إظهار المقدرة على القول بهذه الطريقة ، والتشبه بالأعراب في أساليبهم وهو ما يجنح بالشاعر غالباً إلى التكلُّف ، كما أنَّ هذا النسيج البدويَّ قد يأتي به الشاعر لتلاؤمه مع الحالةِ النفسيَّةِ والعاطفيَّة ، والسياق الذي يتناوله ، ويجدُ في النسيج البدوي وما تحمله ألفاظه من دلالاتِ الحنين غايته ، ممَّا جاءت فيه البداوة غير متكلَّفةٍ لذاتها ، وإنَّما تخدم بنسيجها البدويّ ، الدلالاتِ المطلوبة في الموضوع والسِّياق المطروح .

* * *